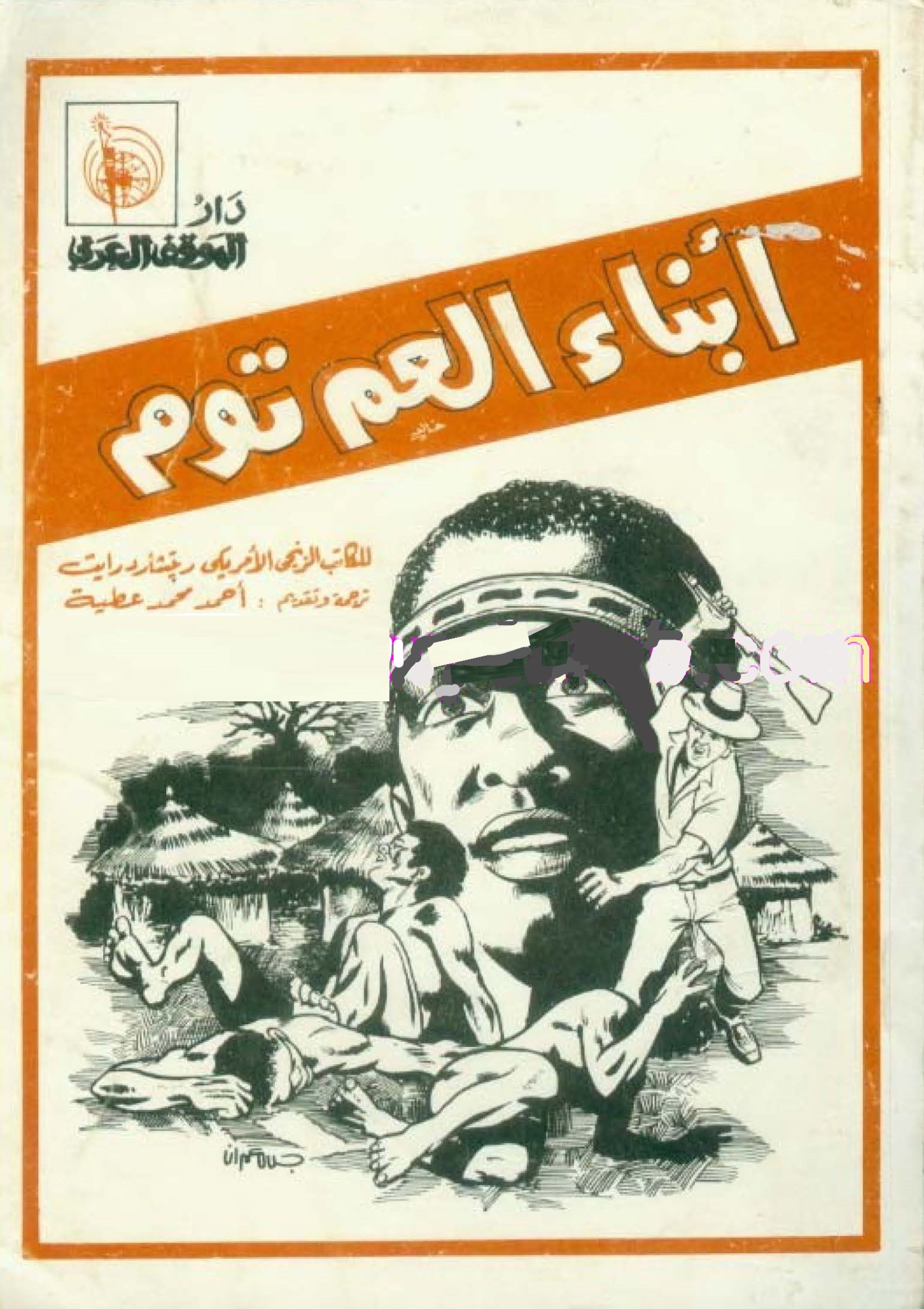

دار
الموقف العربي
أبناء العم توم
للكاتب الزنجي الأمريكي ريتشارد رايت
ترجمة وتقديم : أحمد محمد عطية

أبناء العم توم

للكاتب الزنجي الأمريكي ريتشارد رايت

ترجمة وتقديم أحمد محمد عطية



ريتشارد رايت والأدب الزنجي الامريكى

بدا الأب الزنجي الأمريكى بالحكاية الشعبية ، التى نقلهـــا العبيد الأفارقة معهم من افريقيـــا الى أمريكا بعد اختطافهم فى سفن تجـــار العبيد . وذلك نظـــرا لسهولة تداول الحـــكاية شعبياً ، ولتغييرها عن التراث الافريقى والوجدان الافريقى ومزجها بالالام والهموم الجديدة التى يلاقيها الافريقى فى رحلة العبودية وأعمـــال السخرة تحت وطاة سياط الرجل الامريكى الابيض وقيوده الحديدية. وراجت الحكاية الشعبية بين الزنوج الامريكيين لأنهـــا كانت تحكى همسا ، فى تجمعاتهم وجلساتهم ، فتفلت من رقابة الرجل الأبيض ومن تسلطه وسيطرته على مقدرات الرجل الاسود ، بغية قتـــل روحه وقطع الصلة بينه وبين جذوره الافريقية وتراثه الافريقى . ومن هنا لعبت الحكاية الزنجية دور المقـــاومة وتحقيـــق الذات فى مواجهة تحديات القهر المسلط من السادة البيض ضد الزنوج ، ماديا وروحيا ، لتحويلهم الى عبيد اقرب الى الحيوانات العـــاملة فى مزارع البيض

وقد ولدت ماساة الزنوج الأمريكيين فى سفن العبيد التى لاقوا فيها ويلات رهيبة من التعـــذيب بأسياخ الحـــديد المحمـــاة تكوى اجسادهم ، والقود والاطواق الحديدية تشـــد اقدامهم ورقابهـــم ، وفاتحات الفـــم ونازعات الأظافر ، فى رحلات تهلك اكثر من نصف حمولة كل سفينة من العبيد . وقد تجمع من النصف الباقى نحـــو اربعة عشر مليونا من عدد المختطفين من افريقيا الذى تراوح بين ٣٠ و ٤٠ مليونا من السود . ومن هؤلاء المتبقين تاسس الثراء الامريكى الابيض ، وتكونت معه ماساة الزنوج الامريكيين ، التى ظلت تتفاقم

حتى شهدت الحرب الاهلية الامريكية واعلان تحرير العبيد (١٨٦٣) . غير ان اعلان تحرير العبيد لم يكن اكثر من اعلان رسمي ، ولم يقصد به البيض تحريرا فعليا للزنوج ، بل استهدفوا من ورائه تخليص الزنوج من ربقة أصحاب المزارع البيض فى الجنوب لصالح راسمالى الشمال البيض أيضا ، واصطيادهم للعمل فى مصانعهم بالشمال باجور زهيدة وفى سخرة جديدة مماثلة لعبودية الجنوب . فلم تكن الحرب الأهلية الأمريكية حربا لتحرير العبيد حقا ، ولكنها كانت صراعا بين راسمالى الشمال واقطاعي الجنوب لتغيير نوع مالك العبيد السود . ولقد استمر شنق الزنوج وحرقهم واضطهادهم واستغلالهم واحتقارهم ومعاملتهم كالحيوانات ، من قبل البيض ، حتى اليوم* .

وقد عبر الأدب الزنجى الامريكى عن ماساة الزنوج الامريكيين ، وانعكست فى اعماله الشفوية والمكتوبة مراحل قضية الزنوج من البدايات الافريقية الى التطورات الامريكية ، وحفل الادب الزنجى الشفوى يصور الحنين لافريقيا ، القارة والاسرة والمشاعر الانسانية ، فما اكثر ما فرق تجار العبيد والاقطاعيون البيض بين الاخ واخيه والابن وابيه والزوج وزوجته والحبيب وحبيبه . فجاءت بدايات الأدب الازنجى الامريكى ، فى الحكاية الشعبية والاغنية الشعبية والشعر الشعبى ، لتعبر عن مرحلة تجميع الذات وحماية الزنوج من التحول الى مجرد حيوانات تشقى فى مزارع البيض .

غير ان هذا الأدب الزنجى الشفوى لم يلبث ان تحول الى ادب مكتوب ، ونما كما وكيفا بعد انتهاء الحرب الاهلية الامريكية

---

* راجع القصة الكاملة لاختطاف العبيد من افريقيا ومأساة الزنوج الامريكيين فى كتابنا « دفاع عن الزنوج » الصادر عن الدار القومية بالقاهرة ١٩٦٥ .

واعلان تحرير العبيد ، الذى جـاء كخطوات رسمية فى طريق تطور الزنوج وتحررهم من قيود الرجل الاقطاعى الأبيض الحـديدية ليضعهم فى قيـود الرجل الراسمالي الأبيض الآلية . ولكنه وضـع الأساس الشرعى لنضال الزنوج الأمريكيين فى سـبيل الحـرية والمساواة والعدالة والحقوق الانسانية . وبـدا الأدب الزنجـى الأمريكى المكتوب فى التعبير عن الهموم والاشواق الزنجية شـعرا ، لسهولة تلقى الشعر وتداوله وحفظه وامكانياته فى التعبير الانفعالى السريع عن الهموم الآنية واللحظية . ومن ثم تأخر ظهـور الأدب القصصي والروائى الزنجي الى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، لمـا يتطلبه الابداع القصصى والروائى من تركيب وتصميم وبنـاء وعقلانية ووقت ، فى الكتابة والقراءة ، لدى الكتاب والقراء على السواء ، على عكس الحال مع الشعر الذى ينطلق من الوجدان ويتخلق من الانفعال ويسهل كتابته وتوصيله الى المتلقين. وتمثلت بدايـات الأدب القصـصى الامريكى فى قصـص « شارلز سيسنتت » المتوفى سنة ١٩٣٢ . الا ان هذه البدايات القصصية فى الادب الزنجي الامريكى كانت ضائعة فى خضم التيار العام الطاغى من الشعر الزنجي الامريكى المتدفق بواسطة الشـعراء الزنـوج الأمريكيين الكبار امثال جونسون وبراون وهيوز

و . . ريتشارد رايت ليمثل جماع فن الحكاية والقصة الزنجية الأمريكية ، وليبدع اعمالا قصصية وروائية زنجية تتسم بالتقـدم فى الشكل الفنى وفى المحتوى ، فى بناء الشخصيات وفى مواقفهـا ازاء قهر البيض للزنـوج وتطلعاتهـا لتحقيق الحريـة الكاملة والمساواة الكاملة للانسان الزنجي . لذا يعد « ريتشارد رايت » بمثابة الضـمير للزنوج الأمريكيين ، او كما وصـفه « جان بول سـارتر » ، فى كتابه « ما هو الأدب ؟ » ، قائلا « ان القـراء السود يمثلون ـ للكاتب الأسود الكبير ريتشارد رايت ـ الذاتية، الطفولة ذاتها ، والمصاعب ذاتها ، والعقد ذاتها ، انهم يفهمونه بنصف كلمة بقلوبهم . انه ، فى سعيه الى ان يستنير بشأن وضعه الشخصى ، يبعث النور فى انفسهم . انه يتوسـط الحياة التى يعيشونها يوما فيوم بشكل مباشر ، والتى يتحملون المهـا دون

ان يجدوا كلمات يعبرون عن آلامهم ، ويسميها ، ويريها لهم : انه وعيهم ..)) وهذا هو ما كفل لأعمال ريتشارد رايت القصصية والروائية ، النجاح والقبول لدى جماهير القراء ، فطبعت كتبه بعشرات الطبعات وملايين النسخ ! وجعلت منه الكاتب الزنجي الأول . وارسى رايت بقصصه ورواياته وشخصياته الزنجية الجديدة دعائم الأدب القصصي والروائي الزنجي في امريكا . ومن هنا يعد ريتشارد رايت رائد هذا الأدب بلا منازع .

ريتشارد رايت كاتب حر ثائر على الوضع اللا انساني لزنوج امريكا . كاتب صادق ملتزم عانى ماساة قومه واخلص في التعبير عنها ، وتدفقت في كتاباته الصور الواقعية لمعاناة الزنوج الأمريكيين وتطلعاتهم واشواقهم للمساواة الانسانية بالبيض . ولكن الدعوة الى المساواة لا ترضي قلوب وجيوب الرجعيين من دعاة التفرقة العنصرية . فالمكارثية كانت ترى في الدعوة الى المساواة نشاطا معاديا لأمريكا . ولذا احرقت كتب الأدب الأمريكي الحر في مكاتبها الخارجية ، ومن بينها كتب ((ريتشارد رايت)) . وإزاء التهديدات التي تلقاها ((رايت)) في امنه وحياته، اضطر للفرار مع زوجته واطفاله الى باريس ، وترك وطنه حيث ولد في عام ١٩٠٨ في مزرعة بالقرب من ((ناتشز)) بولاية ((مسيسبي)) . وبعد وفاة والده رحلت عائلته الى ممفيس و ((تنسي)) . في عام ١٩٣٤ انتقل ريتشارد رايت الى شيكاغو حيث بدأ العمل ، سنة ١٩٣٥ ، في الاتحاد المركزي للكتاب ومارس نشاطه الأدبي لأول مرة . واخذ يكتب القصص بانتظام ويرسلها الى الصحف حتى ربح جائزة على مجموعة قصصه ((ابناء العم توم)) من مجلة قصصية . وفي عام ١٩٤٠ نشر روايته الأولى ((ابن البلدة)) التي حملت اليه الشهرة والنجاح والاستقلال المادي والفكري . وقوبلت روايته الثانية ((الصبي الأسود)) بمزيد من الاقبال عليها والانتشار . ثم توفي مغتربا في باريس عام ١٩٦٠ .

فجـرت « أبناء العم توم » ، أولى أعمـال ريتشـارد رايت القصصية ، الأدب القصصى والروائى الزنجى الأمريكى ، وقدمت صياغة قصصية جديدة تعتمد على الحوار ومعمارا فنيا جـديدا يجمع بين الشـكل القصصى والبناء الروائى . وضمت سـيرة ذاتية لكاتبها ، تجسدت فيها مأسـاة الزنجى الأمريكى ومعاناته فى ظل سيطرة الرجل الأمريكى الأبيض واضطهاده وقهره ، بالرغم من مرور نحو قرن من الزمان على اعلان تحرير العبيد فى أمريكا . كما ضـمت مجموعة « أبناء العم توم » خمس قصص طـويلة او خمس روايات صـغيرة . وفى هـذه الترجمة انتقينا سـيرة الكاتب ، التى كتبها بعنوان « اخلاقيات الزنجى الأمريكى المثل » او « فلسفة الحياة عند جيم كرو » ، وأهم روايتين من الروايات الخمس : « بج بوى يغادر المنزل » و « عند ضـفة النهر » ، لدلالة هـذه الأعمال الثلاثة وحسن تمثيلها لأدب ريتشارد رايت ودقة تعبيرها عن مأساة الزنوج الأمريكيين .

و « العم توم » شـخصية رمزية للزنوج الأمريكيين ابدعتهـا الكاتبة الأمريكيـة « هارييت بيتشر ستاو » فى روايتها العظيمة « كوخ العم توم » (١٨٥٢) التى بينت فيها ، باسلوب انسانى مشوق وعطوف ، العذاب الذى يناله الزنوج الأمريكيين فى ظـل العبودية ، وصورت فيها امثلة لهذا العذاب تقشعر لها الأبدان ، فحركت المشـاعر وأثارت العواطف الانسانية ضد العبـودية والرق ، وقدمت الزنوج كبشر لهم قلوبهم واحساساتهم وعواطفهم وعلاقاتهم الانسـانية ، وتسببت فى تحريك الحـرب الأهليـة الأمريكية . ونتجت قوة تأثير الرواية من كونها شـهادة لكاتبة أمريكية بيضاء لم يقبل ضميرها بشاعات الرق والعبـودية التى يكبل بها البيض العبيد السود ، حتى ان الرئيس الامريكى ابراهام لنكولن ، محرر العبيـد ، قـال لمؤلفتها الروائيـة « هارييت بيتشر ستاو » عندما التقى بها فى عام ١٨٦٢ اثناء الحرب الأهلية: « حسنا يا سـيدتى ستاو وانى سعيد بأن أرحب بك بوصـفك مؤلفة تلك القصة التى احدثت هذه الحرب العظيمة » .

قدمت ((هارييت ستاو)) العم توم كشخصية طيبة متدينة مستسلمة رات الويلات فى عذاب البيض وماتت ... هكذا مات ((العم توم)) الشخصية الرمزية وترك ابنـاءه الزنوج يعانون مرارة الالم الذى عاناه من قبل ابوهم . وفى القصتين المترجمتين يكتب لنا ((ريتشارد رايت)) عما حدث لاثنين من ابناء العم توم . وكم هو بشع ومقزز وفاضح لأكذوبة الحرية الأمريكية والعدالة الأمريكية وحقوق الانسان الأمريكية . اذ يلاقى الصبى الزنجى ((بج بوى)) حتفه حرقا بايدى البيض ، فى القصة الأولى المعنونه باسمه ، بينما يقتل الزنجى العجوز ((مان)) ، بطل القصة الثانية، بلا رحمة برصاص البيض ، بعد مطاردات دموية عنيفة يشترك فيها البيض والكلاب . وهى جرائم بلا عقاب ، لا يكف البيض ، حتى اليوم ، عن ارتكابها ضد الزنوج الأمريكيين المتطلعين الى نيل حقوق الانسان .

((احمد محمد عطية))

القاهرة فى أول ديسمبر ١٩٨٠



فلسفة الحياة عند «جيم كرو»

« جيم كرو » مصطلح يقصد به انموذج الزنجى الامريكى

كانت الكلمة السائدة بين الزنوج ابان الحرب الأهلية فى أمريكا « انه العم توم » التى تعنى الاضطهاد لهذا النوع الآدمى الأسود الراكع تحت اقدام البيض والذى يعلم مكانه امامهم . واستبدلت هذه الكلمة بكلمة جديدة تحمل معنى جديدا تقول : مات العم توم .

* * *

هل صحيح ما يقولونه عن « تكسى » ؟

هل تظل الشمس ساطعة طوال الوقت ؟

هل تتفتح زهور المــاجنوليا أمام كل باب ؟

وهل يظل الناس يتناولون الحلوى حتى لا يســتطيعون ابتلاع قطعة واحدة ؟

هل صحيح ما يقولونه عن « سوانى » ؟

هل هذا الجمع من الناس النبلاء حلم ؟

هل يضحكون . هل يحبون . كما يقولون فى كل اغنية ؟

اذا كان هذا صحيحا فهو ما ابتغيه .

« اغنية شعبية »

— ١ —

كان أول درس تلقيته فى كيف أعيش كزنجي عندما كنت لا ازال صغيرا . كنا نعيش فى أركانساس . وكان منزلنا مقاما بجوار خطوط السكك الحديدية . وكان فناؤه الضيق مغطى بقطع من بقايا الفحم الاسـود . ولم ينم أى شيء أخضر فى هذا الفناء . كانت اللمحة الوحيـدة من الخضرة التى يمكننا رؤيتها بعيـدا بجوار الخطوط الحـديدية حيث تعيش عليها جماعات البيض . لكن بقـايا الفحم كانت تكفينى للعبى ، ولم أنس أبـدا تلك الأشـياء الخضراء النـامية ، وعلـى اى حـال كانـت بقـايا الفحـم تصلح كأسلحة خفيفة . ففى الامكان دائما شن حرب حامية رقيقة ببقايا الفحم السـوداء الضخمة . وما عليك الا ان تنحنى بجوار أعمـدة المنزل الحجرية ويداك ممتلئتان بحفنـات من مسـحوق الرصاص . وتفرغها على أول راس ذات شعر أسود ناعم تراهـا من جانب صف آخر من الاعمدة تجعلها درعك الواقى . لقد بذلت ما بوسعك لتنتصر . وكانت تسلية عظيمة .

ولم أتحقق بالمرة من مخاطر لعبة الفحم السيئة هذه حتى .... حدث أن وجدت شلة من الاولاد — أصدقائى — وجدت نفسـها مشتبكة فى حرب مع الأولاد البيض الذين يعيشون بجوار الخطوط الجديدية وكالمعتاد صببنا سيلا من الفحم ظانين بأن ذلك سيطوح بالأولاد البيض بعيدا لكنهم قابلوه بمزيد من الزجاجات المكسورة . فضاعفنا من سيل فحمنا المنهمر لكنهم اختبأوا بجوار الأشـجار والاسـوار وجسور أحواضهم الخضراء المنحـدرة . ونظرا لأنه لم يكن لدينـا مكان نحتمى به . فقد تقهقرنا الى أعمـدة منازلنـا الحجرية . وفى أثناء الانسـحاب أصابتنى زجاجة لبن مكسـورة بجانب الاذن مسببة جرحا عميقا أخذ يدمى بغزارة وأحدث منظر الدم المتدفق على وجهى أثرا سيئا فى معنويتنا . فتركنى زملائى فى المعركة والتفـا بلا حراك وسـط الفناء وتناثروا متجهـين الى منازلهم . وشاهدنى جار طيب وأسرع بى الى طبيب حاك لى ثلاث غرز فى رقبتى .

جلست على أطراف تنمى . ممرضا جرحى ومنتظرا عودة امى من عملها وأحسست بأن جورا خطيرا قد نالنى . لم يكن هنـاك

شيء ضار في القلاء قطع الفحم ، فاقصى ما تسببه قطع الفحم من اذى هو ان تخلف تورما . لكن الزجاجات المكسورة كانت خطيرة فهي تخلفك ممزقا ، داميا ، وفاقد الأمل .

عندما هبط الليـــل . عادت امي من مطعم البيض . فاندفعت هابطا الى الشارع لاقابلها . وشعرت في أعماقي بأنها ستفهم كل شيء . وكنت اعرف انها ستخبرني بالضبط بما يجب على ان افعله بعدئذ . فتعلقت بيدها وحكيت لها ــ بسذاجة ــ القصة بأكملها . ففحصت جرحى ثم صفعتني بكفها وسألتنى :

ــ كيف لم تختبىء ؟ ما الذى اخرجك بعيدا لتتعارك ؟

كنت محطما وأخذت أصرخ بأعلى صـــوتي . وأخبرتها والرغاء يتصـــاعد حول فمي بانه لم يكن لدي اشـــجار او أسوار لأختبىء بجانبها . ولم يكن هناك شيء أستطيع أن أستخدمه كخنـــدق . ولا يمكن أن تطوح بقذائفك بعيدا عندما تكون مختبئا بجوار أعمدة منزل حجرية . فأخذت غطاء برميل خشبي ودفعتني الى المنزل . وأجلستني على ركبتي واوثقتني بحبل وظلت تضربني حتى انتابتني حمى بلغت درجتها اثنتين بعد المـــائة . وضربتني على مؤخرتي بغطاء البرميل وبينما كان جلدى لا يزال ينضح بالألم اخذت تقص على نوادر « جيم كرو » (الزنجي المضطهد بين البيض) الحكيمة . فلـــم اكن ابدا ابـــدا لا تعـــارك مع البيض مرة ثانيـــة ــ وتحت اية ظروف ــ وقد كانوا مصيبين تماما في قذفي بزجاجة اللبن المكسورة .

لم اكن اعلم بأنها تعمل في مطاعم البيض الحارة لتحصل على تعينها على العناية بتربيتي ؟ الم اكن اذهب لأتعلم لاصـــبح ممتازا ؟ وقالت لي انها لا تستطيع أن تقلق نفسها بمعاركي . نهت نصائحها باخباري بأنني يجب أن اشكر الله طوال ما حييت على انهم لم يقتلوني .

وظللت أهذي طوال هذه الليلة ولم استطيع النـــوم . وكلما اغمضت عيني رأيت وجوها بيضاء قبيحة منبثقة من سقف الحجرة تحدق في بعيون شريرة .

وابتداء من هذا الوقت فصاعدا . اختفت جاذبية فناء منزلنـــا الفحمي وصـــارت الأشـــجار الخضراء والأســـوار المنسقة . الأحواض ذات الأزهار المثمرة صارت مجرد علامة . وحتى اليوم

عندما افكر فى البيض اجد الخطوط الحادة المحيطة بمنازل البيض محاطة بالأشجار واحواض الزهور والاسوار لا تزال راسخة بعض الشىء فى قرارة عقلى . وخلال السنين اخذت هذه الاشياء تنمو فى دائرة مميزة من الخوف .

ومضى وقت طويل قبل أن أصبح على علاقة وثيقة مع البيض مرة ثانية . انتقلنا من اركانساس الى المسيسبى . وهنا اصبح لدينا حظ سعيد بالا نعيش بجوار خطوط السكك الحديدية او ملتصقين بجيران بيض . سكنا فى قلب دائرة السود المحلية . كانت هناك كنائس للسود وقسس سود ومدرسون سود . وبقالون سود وموظفون سود . فى الحقيقة كان كل شىء اسود تماما حتى اننى لمدة طويلة لم افكر فى البيض المسالمين فى فترات طويلة قاسية . لكن هذا لم يكن من الممكن ان يستمر الى الابد . فكلما ينمو الانسان يأكل مزيدا من الطعام وتزداد تكاليف ملابسه . فعندما اكملت تعليمى المتوسط . كان على أن اذهب لاعمل.ولم تتأخر امى طويلا فى تزويدى باحتياجاتى والبسى ، وهى فى عملها بالمطبخ .

لا يوجد سوى مكان واحد حيث يستطيع الصبى الأسود الذى يعرف اية حرفة ، أن يجد عملا . وهذا يتوافر حيث المنازل والوجوه بيضاء حيث الأشجار واحواض الزهور والاسوار خضراء كان عملى الاول فى شركة لصناعة النظارات فى جاكسون بالمسيسبى وفى صباح اليوم الذى طلبت فيه . وقفت مشدودا ونظيفا أمام المدير مجيبا على كل أسئلته بكلمتين واضحتين :« نعم يا سيدى » « لا يا سيدى » وكانت حريصا على نطق «يا سيدى» بكل وضوح حتى يعرف اننى مهذب واننى اعلم اين انا . كما اعلم انه رجل أبيض . واردت هذا العمل لدرجة سيئة .

وتفحصنى كأنما يختبر كلبا انيقا مهدى اليه . وسألنى بدقة عن دراستى وبمزيد من الدقة عن مقدار ما تعلمته من الحساب . وبدا مسرورا جدا عندما اخبرته باننى تلقيت دروس الجبر لمدة سنتين . سألنى :

— ياغلام ،ما مدى حبك لمحاولة تعلم شىء مما يدور حولك هنا؟

فاجبته بسعادة :

— اننى لأحب ذلك كثيرا يا سيدى .

كانت لدى تخيلات فى شق طريقى فى الحياة فحتى الزنوج لهم تخيلاتهم.
قال :
ــ حسنا تعال :
فتبعته الى المصنع الصغير .
وقال لرجل ابيض فى حوالى الخامسة والثلاثين من عمره :
ــ « بيز » هذا « ريتشارد » انه سيعمل لحسابنا .
فنظر الى « بيز » وأومأ برأسه .
واقتادنى الى صبى أبيض فى حوالى السابعة عشرة :
ــ « مورى » هذا ريتشارد الذى سيعمل لحسابنا .
فأثنى على مورى قائلا :
ــ ماذا ترى فى ذلك يا غلام .
أجبته : رائع .
واصدر المدير تعليماته الى هذين الاثنين ليساعدانى ويعلمانى ويعطيانى أعمالا أؤديها ويتركانى اتعلم مااستطيع تعلمه فى أوقات فراغى.
كان أجرى خمسة دولارات فى الاسبوع .
وعملت بجد محاولا أن احوز الرضا . ومنذ الشهر الاول وفقت فى عملى تماما وبدا لى أن كلا من بيز ومورى يحباننى . لكن شيئا كان يضايقنى . وظللت أفكر فيه . فلم اكن اتعلم اى شىء ولم يتطوع احد لمساعدتى . وعندما ظننت أنهما نسيا ما يجب على من تعلم بعض الشىء عن آلات صناعة المصابيح الزجاجية . سألت مورى ذات يوم أن يحدثنى عن العمل . فاحمر كيانه وسألنى :
ــ ما الذى تريد أن تفعله ايها الزنجى . كن مهذبا !
فقلت :
ــ اننى الآن احاول أن أكون مهذبا .
ــ حسنا . لا تحاول . اذا كنت تعرف ما يفيدك .
كنت متحيرا . فيما لم يكن يريد أن يساعدنى فقط كما اعتقدت فذهبت الى بيز .
سألنى بيز وقد تصلبت عيناه الرماديتان :
ــ قل لى هل انت مجنون أيها اللقيط الأسود !
فتحدثت مذكرا أياه بما قاله المدير من انه يجب منحى فرصة لأتعلم بعض الشىء .

— أيها الزنجي اتظن انك أبيض . الآ تظن ؟
— لا يا سيدى .
— حسنا انك تفعل تماما كما يفعل الرجل الابيض .
— لكن يا مستر بيز قال المدير ..
فسدد بيز قبضته الى وجهى قائلا :
— ان ما حولك هنا هو عمل الرجل الأبيض ويحسن أن تراقب نفسك .

ومنذ ذلك الحين تغيرت معاملتهما . فلم يعودا يلقيان الى بتحية الصباح . وعندما اكون بطيئا قليلا فى اداء عمل ما . كنت اسمى بالاسود الكسول ابن الكلبة .

وفكرت مرة فى أن اقص كل هذا على المدير . لكن مجرد الفكرة بما قد يحدث لى اذا علم بيز وموري بأننى شكوت أوقفنى . وعلاوة على هذا فإن المدير رجل ابيض أيضا .. فما الفائدة ؟

واكتملت حلقات الحوادث فى ظهر يوم صيف . ناداني بيز الى المنضدة التى يمارس عليها عمله . وكى أصل اليه كان على أن أذهب بين منضدتين ضيقتين واقف مسندا ظهرى الى جدار .
قلت :
— نعم يا سيدى .
ابتدأ بيز حديثه بسرور دون أن يرفع نظره عن عمله قائلا :
— ريتشارد اريد أن اسالك عن شىء ما .
فقلت مرة ثانية :
— نعم يا سيدى .
قفز موري اليها سادا الممر الضيق بين المنضدتين وثنى ذراعيه محدقا فى برزانة .

قلبت النظر من شخص الى الآخر . شاعرا بأن شيئا ما سيحدث .

فقلت للمرة الثالثة :

ــ نعم يا سيدى .

فرفع بيز نظره لأعلى وتكلم بمنتهى البطء .

ــ ريتشارد أخبرنى مستر مورى هنا بأنك ناديتنى باســـم بيز مجـــردا .

فتصلبت وبدت هوة تفتـــح من داخلى . عرفت أن هذه هى بداية المعركة . كان يعنى أننى فشلت فى مناداته بمستر بيز ، نظرت الى مورى . كان قابضا على قضيب من الصلب بين يديه . وفتحت فمى لأتكلم لأحتج لأؤكد لبيز أننى لم اناده ابـــدا ببساطة باسمه مجـــردا من الالقـــاب بيز واننى لم يكن لدى ابـــدا قصد بان افعـــل ذلك عندما جذبنى مورى من ياقتى ضاربا برأسى فى الحائط .

زمجر مورى كاشفا عن أنيابه :

ــ الآن . كن حريصا أيهـــا الزنجى فقـــد سمعتك تناديه بيز مجردا . والآن اذا قلت انك لم تفعل ذلك فانك اذن تسمينى كاذبا . انظر . ولوح بالقضيب الصلب مهددا .

اذا قلت لا يا سيدى مستر بيز انا لم اناداك ابـــدا بيز مجـــردا فاننى بذلك اكون قد سميت مورى آليـــا كاذبا . واذا قلت نعـــم يا سيدى مستر بيز لقـــد سميتك ببيز بلا القـــاب فاننى أكون قـــد اقترفت اثما كبيرا بتوجيه اسوأ اهانة يمكن أن يوجهها زنجى الى رجل أبيض فى الجنوب . فوقفت مترددا محاولا أن أكون اجابة طبيعيـــة .

قـــال بيز :

ــ ريتشارد سأسألك سؤالا .

كان الغضب قد بدأ يتسلل الى صوته .

فقلت بحـــذر :

ــ لا اذكر انني سميتك بيز مجـــردا يا مستر بيز . واذا كنت قد فعلت فانني واثق انهـــا لا تعني ..

ــ انت أيها الاسود ابن الكلبة . لقد سميتني بيز بلا لقب اذن ؟

وظل يصفعني حتى ملت جانبا على منضدة كان موري واقفـــا فوق رأسي قائلا :

الم تسمه بيز ؟ اذا قلت انك لم تفعل سأمزق أمعـــائك الدقيقة بهذا القضيب . أيهـــا العجـــوز المـــاكر . لا يمكن أن تســـم رجلا أبيض بالكذب ، والآن أخرج بالكذوبتك . أيهـــا الاسود ابن الكلبة .

فشحب لوني ورجوتهما الا يضايقاني . وكنت أعلم ما يريدانه أن اغادر المصـــنع .

فوعدت قـــائلا :

سأغادره كلية الآن .

فمنحاني دقيقـــة لمغـــادرة المصنع . وحذرت من أن اشـاهد مرة أخرى أو أن أخبر المدير .

وذهبت .

وعندما أخبرت عشيرتي في المنزل بما حـــدث اعتبروني غبيا . واخبروني بأنني يجب الا احاول مرة ثانية تجـــاوز حدودي . فعندما

تعمل من أجل البيض كما قالوا . يجب أن تتمسك ببقائك فى مكانك اذا أردت أن تظل تعمل .

— ٢ —

استمر تعليمى « كجيم كرو » فى عملى التالى الذى كان حمالا فى مخزن ملابس . وفى ذات صباح بينما كنت ألمع النحاس الامامى هبط المدير وابنه ذو العشرين عاما من عربتهما . وبنصف ركلة ونصف شدة أدخلا امرأة زنجية داخل المخزن ونظر جندى بوليس كان واقفا فى الركن وهو يلف عصاه الليلية واخذت أراقب بعينى من الركن دون أن ألمع النحاس بقطعة الشامواه التى بيدى . وبعد دقائق قليلة سمعت صرخات عصبية آتية من مؤخرة المخزن . واخيرا تدحرجت خارجة دامية صارخة ممسكة بمعدتها . وعندما وصلت الى نهاية المخزن امسك بها رجل البوليس واتهمها بالسكر . وبهدوء لاحظته وهو يلقى بها فى عربة بترول .

عندما ذهبت الى مؤخرة المخزن كان المدير وابنه يغسلان ايديهما عند حوض المياه . كانا يبتسمان . كانت الأرض غارقة بالدماء وممتلئة بقصاصات الشعر والملابس . ولابد اننى ظهرت بشكل من روع لهذا المشهد ، حتى أن المدير صفعنى على ظهرى وقال ضاحكا :

— يا غلام . هذا ما نفعله بالزنوج عندما لا يريدون دفع فواتير حسابهم . ونظر ابنه وابتسم قائلا :

— خذ . هذه سيجارة لك .

ولم أعرف ماذا افعل بها لكننى اخذتها.واشعل سيجارته وامسك بعود الثقاب لأشعل سيجارتى . كانت هذه لمحة من الرقة تعبر

بأنهما رغم ضربهما للعجوز المسكينة فانهما لن يضرباني اذا عرفت فقط كيف احتفظ بفمى مغلقا .

قلت :

ـ نعم يا سيدى .

ولم أسأل اى أسئلة .

وبعدما ذهبا جلست على طرف صندوق مربط فى الارض الدامية حتى انتهت السيجارة .

وفى هذا اليوم عند الظهر بينما كنت أتناول طعامى فى حلقة الزملاء أخبرت زملائى الزنوج الحمالين بما حدث . فلم يبد على اى منهم الدهشة . وسألنى زميل بعد ان ابتلع لقمة كبيرة وتحول الى قائلا :

ـ ماذا ، هل هذا كل ما فعلاه بها ؟

فسألت .

ـ نعم . ألم يكن ذلك كافيا ؟

ـ حسنا . يا رجل لقد كانت كلبة محظوظة .

وقال وهو يغمر شفتيه فى الطعام السائل :

ـ يا للجحيم انه لأمر غريب جدا انهما لم يرقداها عندما صارا داخل المخزن .

— ٣ —

كنت اتعلم بسرعة . لكن ليس بسرعة كافيــة . وفى ذات يــوم بينما كنت اسلم الحزم فى الاحيــاء خرقت عجلة دراجتى . فسرت طوال الطريــق الحار المغبر غارقا فى عرقى وساحبا دراجتى من عجلة القيــادة .

وتباطأت دراجــة بجانبى . ونادانى رجل ابيض قائلا :

— ماذا حدث يا غلام ؟

فأخبرته بأن دراجتى كسرت واننى كنت عائدا على الاقــدام الى البلدة .

قــال :

— هذا فى منتهى السوء . اركب العربة السريعة .

وأوقف السيارة . وامسكت جيدا بدراجتى بيد واطبقت بالاخرى على جانب الســيارة .

— كل شىء معد ؟

أجبتــه .

— نعم يا ســيدى .

وواصلت العربة سيرها . كانت ممتلئة بشبان بيض . كانــوا يشربون وراقبت « القيانسكا » وهى تمر من فم الى فم .

سأل احــدهم :

— أتريد أن تشرب يا غلام ؟

فضحكت عندما صفعت الريح وجهى . وبطاعة فطرية لنصـــائح أمى الاخلاقية النضرة قلت :

ـــ آه . لا .

خرجت الكلمات من فمى بصعوبة قبل أن أشعر بشىء صلب بارد يتدفـــق بين عينى . كان تتزجـــاجة ويسكى فارغة ورايت النجوم . وسقطت متراجعا فى العربة الجارية فى تراب الطريق ، واشتبكت قدماى بأسلاك دراجتى الصلبة ، واطل الرجال البيض ووقفوا حيث كنت .

سألنى الرجل الذى ضربنى :

ـــ أيها الزنجى الم تتعلم تصرفا افضل من هذا بعد ؟ الم تتعلم أن تقول يا سيدى عندما تخاطب رجلا ابيض ؟

وبغباء جمعت كل قواى ونهضت على قدمى كانت كوعاى وسقاى ينزفان دما . فتجمعت القبضـــات وتقـــدم الرجل الأبيض وركل دراجتى بعيدا عن الطريق .

قال أحدهم :

ـــ آه . أترك اللقيط وحده . لقد نال كفايته .

ووقفوا ينظرون الى فمسحت عظام ســـاقى محاولا وقف تدفق الدم . وشعروا دون شك بنوع من الشفقة المزوجة بالاحتقار . لأن احدهم سألنى :

ـــ اتريد الركوب الى البلدة الآن أيها الزنجى !

هل تعتقد انك تعرف الكفاية لتركب الآن ؟

فقلت ببساطة :

ــ أريد أن أمشى

ربما كان تأثير هذه العبارة مضحكا . فضحكوا .

ــ حسنا . امش أيها الاسود ابن الكلبة .

وعندما تركونى أراحونى بقولهم :

ــ أيها الزنجى يجب أن تكون مسرورا لأنك تكلمت بهذه الطريقة ولم تنلك اللعنة . انك لقيط محظوظ لأنك اذا كنت قد قلت هــذا الكلام لأى شخص آخر لصرت فى عداد الزنوج الأموات .

ــ ٤ ــ

الزنوج الذين عاشوا فى الجنوب يعرفون الفزع الذى يحــدث عند الامساك بالزنجى وحيدا وسط الشوارع فى أحياء البيض بعد غروب الشمس فى وضع بسيط كهذا فان حالة الزنجى فى امريكا تكون مميزة بوضــوح . فبينمــا كان الغرباء البيض ــ ربمــا ــ يتخذون طريقهم وسط هذه لاالاحياء محاولين الحصول على منزل فانهم يستطيعون أن يمروا دون أن يكونوا ملحوظين.لكن لون جلد الزنجى يجعله مميزا بسهولة . ويجعله موضعا للشكوك ويضعه فى مأزق بلا دفاع .

ففى ليلة متأخرة ليوم سبت كنت أسلم بعض الحزم الى احيــاء البيض . وكنت ادير دراجتى عائــدا الى المخزن بأقصى سرعــة ممكنة . عندما حــادت عربة بوليس عن الطريق متجهة نحــوى ودفعتنى داخل الرصيف . وامرنى رجال البوليس قائلين :

— أنزل وأرفع يديك .

ففعلت فتسلقوا خارجين من السيارة ببنادق معدة وسحن مقلوبة وتقدموا ببطء وامرونى :

— أبق ساكنا .

فرفعت يدى لأعلى ارتفاع . وبحثوا فى جيوبى وحزمى . وبدوا غير مكتفين بهذا عندما لم يتمكنوا من ضبط ما يشكل جريمة . وأخيرا قال لى أحدهم :

— أيها الصبى . قل لمديرك الا يرسلك خارجا فى أحياء البيض بعد غروب الشمس .

وكالمعتاد قلت :

— نعم يا سيدى .

— ٥ —

كان عملى التالى كخادم صالة فى فندق وهنا اتسع تعليمى ك « جيم كرو » وتعمق . فعندما يكون الخدم مشغولين كنت أنادى غالبا لأساعدهم ولما كانت أغلب الحجرات فى الفندق تشغلها العاهرات فكنت كثيرا ما انادى لأحمل اليهن الخمر والسجائر . وكن عاريات معظم الوقت . ولم يكن يضايقن بخصوص الملابس حتى ولا لوجود الخدم . عندما تدخل فى حجراتهن يطلب اليك أن تخلع ما يستر عراهن مقابل « بقشيش » ما دامت رؤيتهن لا تثير دهشتك أكثر مما تفعله زهرية زرقاء أو بساط احمر . فوجودك لا يثير فيهن أى احساس بالخجل لأنه لا ينظر اليك كانسان . فاذا كن وحدهن . يمكنك أن تختلس اليهن نظرات

جانبية خاطفة من عينيك . لكن اذا كن يستقبلن رجالا فلا تبـــدو من جفونك هزة واحدة .

وأذكر حادثا حيا . شغلت امرأة جديدة بيضاء الجلد وشقراء حجرة فى الطابق الذى أعمل به . فأرسلت فى طلبى لاقوم بخدمتها كانت فى الفراش مع رجل ثقيل السحنة . وكان الاثنان عاريين وبلا غطــاء . وقالت انها تريد بعض الخمر وانزلقت من السرير خــثرت على الأرض لتحضر النقــود من درج دولاب الملابس مرقبتها . فســألنى الرجل الأبيض . رافعا نفسه على كوعيه :

ــ أيها الزنجى ما الذى ــ بالجحيم ــ تنظر اليه ؟

فأجبت وأنا أنظر لأعماق أميال فى جدار الحجرة الاملس :

ــ لا شىء .

قـــال :

ــ أحفظ عينيك فى مكانهما اذا أردت أن تظل سليما .

ــ نعم يا سيدى .

ــ ٦ ــ

كان أحد خدم الفندق ممن أعرفهم فى هذا الفندق على عـــلاقة صداقة وطيدة باحدى الوصيفات الزنجيات وعندما كانت السماء صحوة صعد البوليس الى منزله وقبضوا عليه متهمين اياه باقامة علاقة غير شرعية ؛ وأقسم المسكين بأنه لم يقم أى عـــلاقة غير شرعية بالفتـــاة فلم يعيروا كلامـــه أدنى انتبـــاه واقتادوه ليتزوجها

وعندما وصل الطفل اتضح بخفة لون البشرة ان ايا من الاثنين المفترى عليهما ، ليس من الأبوين الشرعيين . وجعل الرجال البيض حول الفندق منها نكتة كبيرة . فروجوا اشاعة بأن بعض البقرات البيضاء لابد انها أصابت الفتاة المسكينة بجرح مميز بينما كانت تحمل الطفل . واذا كنت فى مكانهم عندما أذيع هذا التعليل . كان عليك أن تضحك .

— ٧ —

قبض على احد خدم الفندق فى الفراش مع عاهرة بيضاء وضرب حتى تفجرت شرايينه وطرد الى خارج البلدة . وبعد حدوث هذا فى الحال ، جمع جميع خدم الفندق وخدم الصالات ، جمعنا معا وحذرنا وكان علينا أن نفهم أن الصبى الذى ضرب كان لقيطا قويا محظوظا . وارغمتنا على السكوت حقيقة أن ادارة الفندق لن تكون مسئولة فيما بعد عن حياة الزنوج من مثيرى المتاعب . فسكتنا .

— ٨ —

فى ذات ليلة بينما كنت على وشك العودة الى المنزل قابلت أحدى الخدم الزنجيات . كانت تسكن فى جهتى وهبطنا لنسير جزءا من الطريق معا . وما أن مررنا بجندى المراقبة الليلى الأبيض حتى ضرب الخادمة على مؤخرتها فاستدرت حولى مذهولا . ونظر الى جندى المراقبة نظرة طويلة قاسية . وفجأة جذب بندقيته وسألنى :

— أيها الزنجى الا تشبهها ؟

فترددت .

فسأل ثانية . وقد خطا طويلا :

غمغمت :

ــ نعم يا سيدى .

ــ تكلم مثلها . اذن .

قلت ما تمكننى به شجاعتى من عدم الرهبة :

ــ أوه . نعم يا سيدى .

وسرت خارجا مع الفتاة خجلا من مواجهتها .
فتماسكنا سويا وقالت :

ــ لا تكن غبيا . انك لا تستطيع أن تفعلها .

ان لجندى المراقبة هذا ان يفخر بقتله زنجيين فى حالة دفاع شرعى .

الا أنه رغم كل هذا كانت حياة الفندق تجرى برقة مدهشة . وكان من المستحيل على الغريب أن يكتشف أى شىء فالخادمات وخدم الفندق وخدم الصالة كانوا جميعا يبتسمون . كان عليهم أن يفعلوا ذلك .

ــ ٩ ــ

لقد اتقنت دروس « جيم كرو » جيدا حتى اننى احتفظت بعمل الفندق الى أن غادرت « جاكسون » الى « ممفيس » وفى ممفيس حدث أن اخترت لعمل فى فرع شركة النظارات . كنت مؤجرا . ولسبب ما بقدر ما عملت هناك لم يحاولوا أبدا اثارة ماضى ضدى.

وهنا أتخذ تعليمى كـ « جيم كرو » شــكلا مختلفا تماما لم يكن بالغ القسوة بل قسوة ناعمة . هنا تعلمت أن أكذب وأن أسرق وأن أخدع . تعلمت أن ألعب ذلك الدور المزدوج الذى يجب على كل زنجي أن يلعبه اذا أراد أن يأكل وأن يعيش . فمثلا ، كان من الصـــعب غالبا أن تجد كتـــابا تقـــرأه . فقد كان مقررا أنه بعد ما يتجرع الزنجى ذلك التعليم المدرسى القليل فى الولاية فانه لم تعـــد به حاجة للكتب . كنت دائما اقترض الكتب من الرجال فى العمل . وفى يوم أنست فى نفسى الشجاعة الكافية لاطلب من أحد الرجال أن يسمح لى بأخذ الكتب من المكتبة تحت أســـمه . وكان أمرا مدهشا ، أن يوافق . ولم أصدق ، بل اعتقدت أنه وافق لأنه رومانى كاثوليكى ويحس عطفا غامضا للزنوج لكونه هو نفســـه من عوامل الكراهية . وحصلت على الكتب ، وأنا مسلح ببطاقة استعارة بالطريقة الآتية : كنت أكتب مذكرة لأمين المكتبة ، قائلا : أرجوك دع هذا الصبى الزنجى يأخذ الكتب الآتية ، وأوقع عندئذ باســـم الرجل الأبيض . كلما ذهبت الى المكتبة ، كنت أقف أمام المكتب ، والقبعة فى يدى ، محاولا أن أظهر كمن لا يحب الكتب قدر الامكان . وعندما أتسلم الكتب المطلوبة كنت أخذها الى المنزل . واذا كانت الكتب التى فى القائمـــة معارة خـــارج المكتبة ، كنت أنسحب الى الممر ، وأزور بطاقة جديدة . ولم أعط أى فرصـــة للمكتبى الأبيض كى يخمن بما يطلبه الرجل الأبيض الوهمى ليقرأ . فبلا ريب اذا شك أحد المستعيرين البيض فى أن بعض المجلدات التى يحبونها كانت فى منزل زنجى فلم يكونوا ليقبلوا ذلك لحظـــة واحدة .

كانت قوة مصنع شركة النظارات فى « ممفيس » أضخم بكثير من مثيله فى « جاكسون » وأكثر تمدينا . فعلى الأقل كانوا يحبون التحدث وقد يشتركون فى محادثة الزنجى ومساعدته بقدر ما يمكن

وبهذا وجدت أن هناك موضوعات كانت بعيدة عن مستوى نظر الرجل الأبيض ، ومن بين الموضوعات التى لا يحبون الخوض فيها مع الزنوج كانت هذه الموضوعات : « النساء الامريكيات البيض، الكوكلوكس كلان(١) ، فرنسا وكيف أن الجنود الزنوج ناجحون هناك ، النساء الفرنسيات ، جاك جونسون ، الجزء الشمالى بأكمله من الولايات المتحدة الحرب القاسية ، ابراهام لنكولن(٢) جرانت الولايات المتحدة(٣) الجنرال شيرمان ، الكاثوليك ، البابا ، الحزب الجمهورى العبودية ، المساواة الاجتماعية ، الشيوعية ،

---

(١) الكوكلوكس كلان » ، عصابة ارهابية لارهاب الزنوج وقتلهم شنقا على فروع الاشجار ، تكونت فى أعقاب حرب تحرير الزنوج فى أمريكا سنة ١٨٦٥ ويرتدى أعضاؤها الطراطير مرسوما عليها الجماجم بالفوسفور شعوذة وارهابا للزنوج ولها فروع فى جميع انحاء الولايات المتحدة مازالت تمارس نشاطها الارهابى الى اليوم .

(٢) « ابراهام لنكولن » أول رئيس أمريكى ينجح على أساس تحريم الرق فى الولايات الجنوبية ، فى ٤ من نوفمبر ١٨٦١ ، مما تسبب فى نشوب الحرب الاهلية فى الولايات المتحدة ، وانتهت بانتصار قوى التحرر على أنصار العبودية . وفى أثناء المعارك الحربية اصدر « لنكولن » اعلان تحرير العبيد الشهير الذى جاء فيه « انه فى اليوم الاول من شهر يناير سنة ١٨٦٢ ، يصبح جميع الاشخاص الذين يعاملون كعبيد فى أى ولاية أو جزء معين من ولاية يكون سكانها أو سكانه فى ثورة ضد الولايات المتحدة ـ يصبحون منذ ذلك الحين والى الابد أحرارا » .

(٣) الجنرال جرانت ، القائد العام الذى أحرز النصر فى حرب تحرير العبيد وقد سمى جرانت الولايات المتحدة لان أول حرف من كل من اسميه يشبه أول حرف من كلمتى الولايات المتحدة (باللغة الانجليزية) .

الاشتراكية ، التعديلات الـ ١٣ والـ ١٤ للدستور(١) أو أى موضوع للمعرفة اليقينية أو الدفاع الشرعى الانسانى عن قضية الزنوج ، كانت الموضوعات الأكثر رواجا هى الجنس والعبادة .

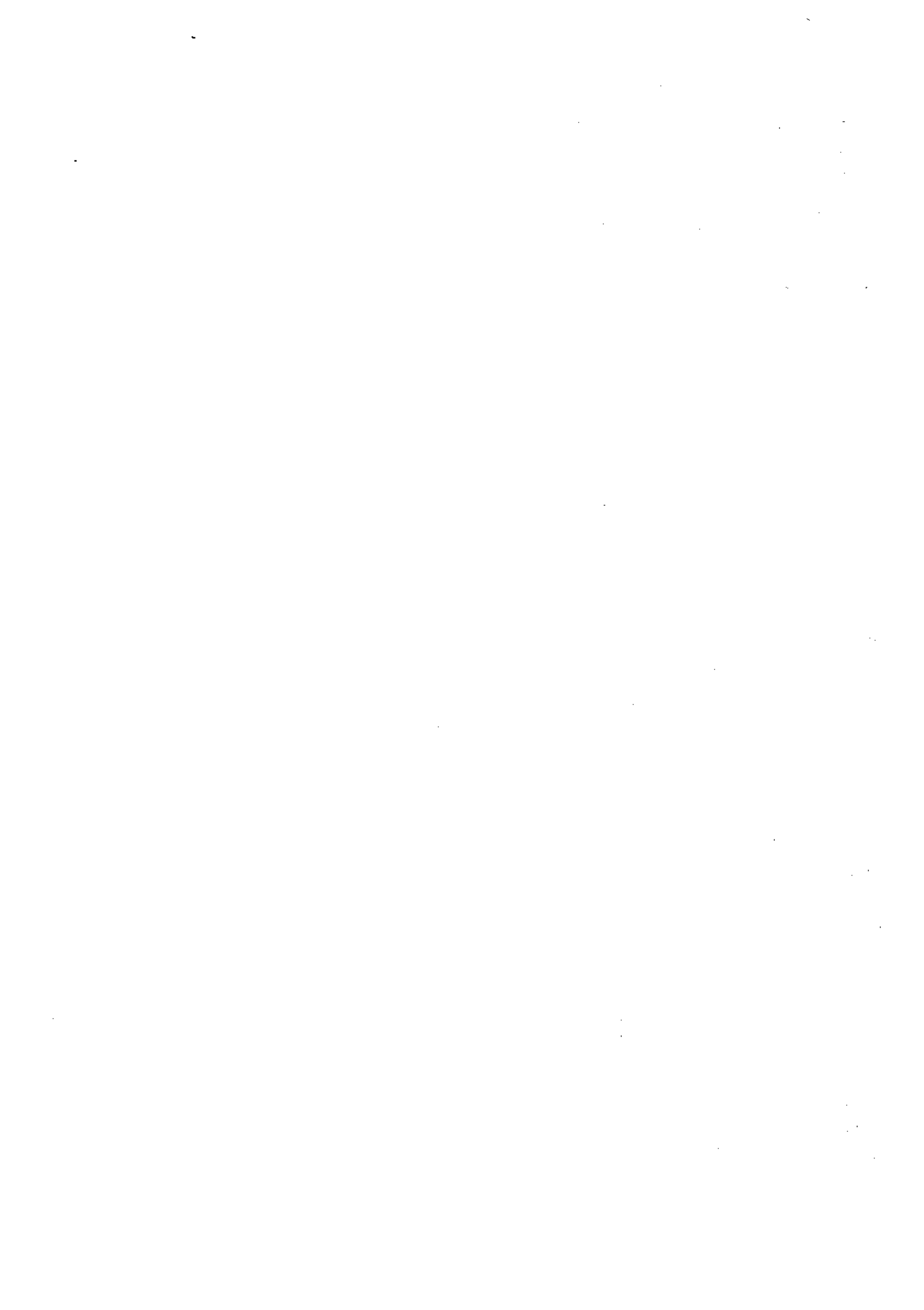
كانت هناك أوقات عديدة عندما كان على أن أختبر مجموعة من سبل المهارة فى الابتعاد عن المتاعب . انها عادة جنوبية تلك التى تقضى بأن يخلع كل الرجال قبعاتهم عندما يدخلون المصعد . وعلى الأخص بالنسبة لنا نحن السود بما يجب علينا من اطاعتها بقــوة قاسية . وفى يوم خطوت داخل المصعد وذراعاى ممتلئتان بالحزم . فكانت مجبرا على الركوب وقبعتى فوق راسى . فحدق فى رجلان أبيضان ببرود . ثم رفع أحدهما قبعتى برقة ووضعها على ذراعى الممتلىء بالحزم . والآن فالاجابة المعقولة غالبا بالنســبة لزنجى فى مثل هذه الظروف هو أن ينظر الى الرجل الأبيض بنظرة جانبية ويبتسم . ولكى تقول : أشكرك . ستجعل الرجل الأبيض يعتقد انك فكرت بأنك تتقبل منه خدمة شخصية . فلمثل هذا العمل رايت زنوجا يتلقون ضربة على الفم . ولمــا وجــدت الاجابة الأولى كريهة تماما ، والثانية خطيرة ، ضربت على نغمة معقولة جاءت ســليمة بين هاتين الاجابتين المتطرفتين . وفى الحــال ، بمجرد ما رفعت قبعتى تظاهرت بأن حزمى كانت على وشك ان تنهال ، واظهرت المـــا عميقا باحتفاظى بها على ذراعى ، وبهذه الطريقة المبتكرة تجنبت الظهور بمعرفة خدمته ، وعلى الرغم من الظروف المعادية ، فقد أفتديت بقايا ضئيلة لكبرياء شخصى .

---

(١) التعديلات التى اضافها الرئيس الامريكى « ابراهــام لنكولن » الى الدستور ، والقاضية باعلان تحرير العبيد .

كيف يحس الزنوج بالطريقة التى يجب أن يعيشوا بها ؟ كيف يناقشـــونها بين أنفسـهم عندما يكونون وحدهم ؟ أظن أن هــذه الأسئلة ، يمكن أن يجاب عليها بجملة مفردة . وذات مرة قال لى صديق يعمل فى مصعد :

— يا رجل .. لو لم يكن البوليس قد خلق من أجلهم بما فيهم جماعات الاغتيال لم يكن هناك شىء سوى أن ينقلب الصراخ الى الحضيض هنا .





" بيج بوى " يغادر المنزل

— ١ —

— انت يا ماما لا تلبسين أى « جونله » ...

ارتفع الصوت واضحا خارجا من الغابات ، وتلاشى مبتعدا . وكالصدى التقطه صوت آخر :

— آه رأيناها عندما خلعتها ...

وقال صوت آخر عال . حاد ، مراهق :

— لا ، انها غسلتها فى الكحول ...

ثم اجتمعت أربعة أصوات فى نغمة موسيقية طافية لاعلى فوق قمم الأشجار :

— لا لقد علقتها خارجا فى الصالة ..

وجاء أربعة من الصبية يضحكون فى دعة ، خارجين من الغابات الى المراعى النضرة ، وساروا بأقدام عارية ، يضربون فروع الكروم المتشابكة والشجيرات بعصى طويلة .

— أريد أن أعرف سطورا أكثر من هذه الأغنية .

— وأنا أيضا .

ــ نعم ، أنت توقفت عندما أوصلتنا الى حيث علقتها خارجا في الصالة . (Call)

ــ خمنوا ، ماذا يتفق مع نغمة « صالة » ؟

ــ ينادى . (Call)

ــ يسقط . (Fall)

ــ جدار . (Wall)

ــ « كول » . (Quall)

وألقوا بأنفسهم على الحشائش ضاحكين .

ــ يا « بج بوى » ؟

ــ أنت تعرف شيئا واحدا ؟

ــ ماذا ؟

ــ ما هو ؟

ــ أنت أوضحت أنك مخبول .

ــ مخبول ؟

ــ نعم ، أنت شخص هائم مجنون .

ــ مجنون لماذا ؟

ــ يا رجل ، هل سمعت أبدا بكلمة « كول » ؟ (Quall)

ــ قلت انها تريد شيئا يتناسب مع نغمة كلمة « صالة » (Hall) ، ألم تقل ؟

ـ نعم ، لكن ما هو الـ « كول » ؟

ـ يا زنجى ، الكول هو الكول .

وضحكوا ببساطة ، وهم يمسكون ويجذبون أعواد العشب الطويلة الخضراء بأصابع أقدامهم .

ـ حسنا اذا كان الكول هو الكول فما هو « الكول » ؟

ـ آه ، الا تعرف .

ـ مـاذا ؟

ـ بهذا ستجرى الاغنية كلها هكذا :

أنت يا ماما لا تلبسين أى « جونلة » ،

آه رأيناها عندما خلعتها ،

لا انها غسلتها فى الكحول ،

لا لقد علقتها خارجا فى الصالة ،

لا اذن فقد وضعتها على « كولها »

وضحكوا ثانية . كانت أكتافهم مستوية مع الأرض ، وركبهم منثنية لاعلى ووجوههم متجهة الى الشمس .

ـ يا « بج بوى » انك مجنون .

ـ لا تسألنى شيئا آخر .

ـ أيها الزنجى ، انت مجنون .

وصمتوا يبتسمون ، وهم يسقطون جفون عيونهم من ضوء الشمس .

ـــ يا رجل ، الا تشعر بدفء الأرض ؟

ـــ تماما كالسرير .

ـــ اذن ، يمكنني البقاء هنا الى الأبد .

ـــ وأنا أيضـــا .

ـــ انى أشعر كأنما الشمس كلها تدخل داخل جسمى .

ـــ أشعر كأن عظامى دافئة .

وعلى بعد أطلق قطار صفارته بكآبة .

ـــ هناك يذهب رقم اربعة .

ـــ أضرب الكل فى ستة .

ـــ ضعها تحت الخط .

ـــ اقفز لأعلى الشمال يا ولد ، أقفز لأعلى الشمال يا ولد .

وابتدأوا يغنون ، ويضربون العشب بكعوبهم العارية .

هذا القطار ، ذاهب الى السماء .

هذا القطار ، يا للروعة .

هذا القطار ، ذاهب الى السماء .

هذا القطار ، يا للروعة .

هذا القطار ، ذاهب الى السماء .

اذا ركبت فلا داعى للخوف أو القلق .
هذا القطار ، يا للروعة .

هذا القطار ...

هذا القطار لا يحمل أى مقامر .

هذا القطار ، يا للروعة .

هذا القطار لا يحمل أى مقامر .
هذا القطار ، يا للروعة .

هذا القطار لا يحمل أى مقامر .

ليس لنباتات النهار المتسلقة ولا لزهور منتصف الليل الزاحفة

هذا القطار ، يا للروعة .

هذا القطار ...

عندما انتهت الاغنية انفجروا ضاحكين ، يفـــكرون فى قطار صاعد الى السماء القدسية .

ــ يا للروعة ، هذه أغنية طيبة .

ــ يا انســان (انسان) ...

ــ ماذا ؟

ــ يا للروعة ، صففير (يا للروعة صفير) ...

ــ ماذا ؟

— شخص ما يوقف الريح . ماذا يفعل .

قفز بوك و « بوبو » و « لستر » لأعلى وظل « بج بوى » على الأرض مدعيا النوم .

— يا للغرابة ، هذا يوضح الرائحة الكريهة .

— « بج بوى » .

تظاهر « بج بوى » بالشخير .

— يا « بج بوى » .

فتقلب الصبى كانما هو نائم .

— « بج بوى » .

— مـــاذا ؟

— هل هناك عفونة فى جوفك ؟

— عفـــونة .

— يا ولد ، ألا تشمها ؟

— أشم ماذا ؟

أيها الزنجى ، لابد انك تناولت طعاما رديئا .

— أشم ماذا ؟

— أيها الزنجى ، انك تطلق الريح .

ضحك « بج بوى » واستلقى ظهره فوق العشب ، مغمضـــا عينيه .

ــ الدجاجة ، ما الذى يصـــيح داخل الدجاجة (يكاكى) ؟ ما الذى يحدث البيضـة ؟

ــ لا نملك دجاجـــا .

ــ أنت تصيح مثلها (تكاكى) الم تفعل ؟

تحرك الثلاثة بعيدا بأنوف مرفوعة لأعلى ، تحرك الثلاثة بأنوف شـامخة .

ــ تعال .

ــ الى أين أنتم ذاهبون ؟

ــ الى البحيرة لنسبح .

ــ نعم ، سأسبح .

قال « بج بوى » وهو يصفع الهواء بفرع نخلة بدون أكتراث :

ــ الآن لابد الآن .

ــ نعم ، وداعا . لا تكن متلكئا .

ــ لا ، ستقتلون ، ما بالك متلكئا الآن .

ــ انه لا يريد أن يذهب ليرانا .

ــ كيف عرفت ؟

ــ لأنه لا يريـــد .

قال « بج بوى » :

— أذهبوا جميعا . سوف أبقى أنا سليما هنا .

— يا للجحيم ، دعه يبقى . تعال ودعنا نذهب .

وسار الثلاثة بعيدا ضاربين الشجيرات والعشب بالعصى . فنظر « بج بوى » بتكاسل الى ظهورهم .

— هـاى .
ونظروا خلف أكتافهم وهم سائرون .

— هاى ، أيها الزنوج .

— تعـال .

صرخ « بج بوى » ، والتقط عصاه ، ونهض على قدميه وصاح:

— انتظروا !

— تعـال !

وجرى وأمسك بهم ، وقفز فوق ظهورهم ، ملقيا بهم الى الأرض

— أهدأ ، يا « بج بوى » .

— أسكت أيها الزنجى .

— أذهب الى الجحيم بعيدا عنى .

تدحرج « بج بوى » على العشب بجانبهم ضاحكا وضـاربا بكعبيه على الأرض .

— أيها الزنجى ، ماذا تظننا ، خيل ؟

ـــ كيف تأتى من بعيد لتقفز فوقنا ؟

ـــ اسمع ، سنمر فوقك فى يوم من هذه الأيام ولنضربك جميعا ،

أبتسم « بج بوى » قائلا :

ـــ هذا كاف ؟

ـــ نعم ، ألا تحبه ؟

ـــ سنضربك حتى لا تستطيع أن تسير .

ـــ لاتجرؤون على عمل شىء من ذلك .

وكشف « بج بوى » عن أسنانه .

ـــ تعال . حاول أن تفعل ذلك الآن .

فأحاطه الثلاثة فى دائرة .

ـــ أسمع ، يا « بوك » أنت تمسك قدميه جيدا .

ـــ وأمسك أنت برأسه يا « لستر » .

ـــ وأنت يا « بوبو » عليك الآن بامساك ذراعيه .

واحتفظوا بمسافة تزيد على طول الذراع ، واحاطوا « ببج بوى » يدورون ويدورون فقال « بج بوى » ملوحا بضربة وهمية لاحدهم ثم الآخر :

ـــ هل يخيفنى ثلاثتكم ؟

وظلوا يدورون ويدورون وهم يحيطون به ، لكن دون أن يبدو انهم صاروا أكثر اقترابا ، وقف « بج بوى » وثبت يديه فى فخذيه.

قال « بوبو » مبتسما :

— دعوه لوقت آخر .

قال « لستر » :

— نعم ، فيمكننا أمساكك وانت تفكر .

قال « بوك » :

— نستطيع أن نخدعك .

وضحكوا وساروا معا .

تجشأ « بج بوى » قائلا :

— انى جائع .

— وانا أيضـــا .

— أتمنى لو املك قدرا كبيرا ساخنا من لحم البطن .

— تطبخ مع بعض أجزاء الصدر الجيدة ..

— لا مع عدد من البيض الجيد وخبز الذرة ..

— لا مع بعض الزبدة ..

— لا مع بعض المشمش الساخن سابحا فى الشوربة ..

— أسكت ، أيها الزنجى .

وابتداوا يغنون ، ضاربين على العشب بالعصى مع آخر كل شطر من الأغنية .

الى اللقاء الى اللقاء

أريد قطعة من فطيرة

فطائر حلوة جدا

أريد قطعة من اللحم

لحم أحمر جدا

أريد قطعة من الخبز

خبز لامع جدا

أريد أن أذهب الى البلدة

البلاد البعيدة جدا

أريد أن امسك سيارة

السيارات السريعة جدا

انا اسقط الآن

وكلهم يفهمونها جيدا الى اللقاء ، الى اللقاء ...

تسلقوا سورا من الأسلاك الشائكة ودخلوا متسعا من الغابات الكثيفة . كان « بج بوى » يصفر برقة ، وعيناه نصف مغمضتين .

ـ « هيا نمسك به »

واستدار « بوك » و « لستر » و « بوبو » سريعا ، وأمسكوا بـ « بج بوى » جيدا من الرقبة والذراعين والساقين ، ملقين به الى الأرض فأخذ يصرخ ويركل بقسوة عندما تراجع الى داخل النباتات « الشيطانية » .

— امسكه جيدا .

— أمسك ذراعيه . امسك ذراعيه .

— أجلس على ساقيه حتى لا يتمكن من الركل .

فزمجر « بج بوى » بعنف ، محاولا التخلص من قبضتهم .

— « لقد أمسكنا بك الآن ، أيها الأبله ، أمسكنا بك الآن »

فقال « بج بوى » :

— هذه أكذوبة بلهـــاء .

وركل وانحنى وحاول أن يحكم القبض على احـــدهم ثم على الآخر .

— قال « بوبو » :

— قل ، ساعدونى جميعا واتركوا ذراعى .

قال « لستر » :

— آه ، لقد أمسكنا هذا اللقيط الآن .

قال « بج بوى » ثانية :

— هذه أكذوبة بلهاء .

فناداه « بوبو » قائلا :

— قل . ساعدونى جميعا واتركوا ذراعي .

حاول « بج بوى » أن يحيط عنق « بوبو » بذراعه اليسرى . وثنى كوعه كالمقص وثائثا من بين أسنانه :

— هل امسكتم بى ، هل فعلتم ؟

— أمسكه .

— هيا نضرب هذا اللقيط .

صاح « بوبو » :

— هيا ، ساعدونى فى أمساك ذراعيه ، فقد تمكن من رقبتى.

فضغط « بج بوى » على عنق « بوبو » وأنزل رأسه الى الأرض .

— أنتم امسكتم بى ، هل فعلتم ؟

فصرخ « بوبو » :

— أهدأ يا « بج بوى » ، انك تضربنى . انك تؤلم رقبتى .

قال « بج بوى » :

— دعنى اتحرك .

فتوسل « بوبو » قائلا :

— لست أنا الممسك بك ، انهم الآخرون .

قال « بج بوى » :

— قل للآخرين ليذهبوا للجحيم بعيدا عنى والا نساحطم عنقك

فردد « بوبو » :

— انتركوا جميعمعا (أتركوا جميعا) « بج بـــوى » انه ممسك بى .

— ألا تستطيع أن تمسك به ؟

— للا ، اننه ممسك بعنقى (لا ، انه ممسك بعنقى) .

فزاد « بج بوى » من ضغطه على عنقه قائلا :

— الأن سأحطمه اذا لم تخبرهم بأن يذهبوا الى الجحيم بعيدا .

أسرع تنفس « بوبو » مذرفا الدموع قائلا :

— خلصونى (خلصونى) .

سأل « بوك » :
— الا يمكنك أمساكه يا « بوبو » ؟

— لا لا ، أتركوه أنتم ، فسيققضى على رقبتى (فسيقضى على رقبتى) .

— أقبض على رقبته يا « بوبو » ..

— لا يمكننى ، أتركوه ..

وحتى يمكنهما انقاذ « بوبو » قفز « لستر » و « بوك » وجريا الى مسافة بعيدة فى مأمن من « بج بوى » . وأفلت « بج بوى » « بوبو » من قبضته فسقط عند قدميه ، ولعابه يسيل محاولا تدليك أثر الآلم برقبته .

صاح « بوبو » بصوت كالطفل الصغير :

ـــ أيها الزنجى ، كدت أن تحطم رقبتى .

قال « بج بوى » :

ـــ سأحطمها هكذا فى المرة القادمة .

قال « لستر » مستسلما :

ـــ لو أستطاع « بوبو » أمساكك لكنا تمكنا منك .

قال « بج بوى » :

ـــ لم يحدث شىء ، دعه يفعل ذلك .

وساروا معا مرة ثانية ، وهم يضربون بالعصا .

ابتدأ « بج بوى » قائلا :

ـــ هل ترون ؟ عندما يقفز عليكم أحد ، كل ما عليكم أن تفعلوه لا تدعوا الهجوم لشـــخص واحد بل أشتركوا جميعا فيه ، هل ترون ؟

ـــ يا للروعة ، هذه فكرة طيبة .

ـــ حقا ، هذه فكرة طيبة .

قال « بوبو » :

ـــ لكنك كدت تحطم رقبتى يا رجل .

قال « بج بوى » وهو يفتح صدره بقوة :

ـــ أننى زنجى مهذب .

وساروا الى ساحة السباحة .

قال « بوبو » :

— سأمضى للسباحة .

سأل « بج بوى » :

- الا تخاف ؟

— الآن ، لا أخاف ..

— كيف تسبح هنا ؟

— انك تعلم بأن جميـــع رجال « هارفى » لا يسمحون للزنوج بالسباحة فى هذه الساحة .

قال « لستر » :

— نعم فقد وجهت فى العام المـــاضى رصاصة نحو « بوب » لسباحته هنا .

قال « بج بوى » :

— لا تخشوا شيئا ، فكل أفراد « هارفى » لا يدرسون علومهم عنا نحن الزنوج .

قال « بوك » :

— انه فى منزله يفكر فى شطائر الحلوى .
وضـــحكوا .
قال « لستر » :
— « بوك » ، أنت تعنى انه غارق فى صدور الثمابين .
قال « بج بوى » :
— كل رجـــال « هارفى » فى شغل للغاية ، فى التفـــكير حول شطائر المربى ، أما هارفى العجوز فقد أصبح أشيخ من أن يفكر فيها .
قال « بوبو » :
— لقد جف عوده ، وخفت من عصارة الحياة .
قال « بج بوى » :
— تعالوا ، هيا نذهب .
أشار « بوبو » قائلا :
— أنظر هذه العلامة هناك ؟
— نعـــم .
— ماذا تقول ؟
قرأ « لستر » :
— ممنوع المرور .

— هل تعرف ما معنى هذا ؟

قال « بوك » :

— يعنى انه ، لا الكلاب ولا الزنوج مسموح لهم بالدخول .

قال « بج بوى » :

— كان « وول » هنا الآن ، اذا أمسكنا هكذا ستكون هناك قلاقل لذا فاننا سندخل بمجرد ذهاب « وول » ..

— سأكون انا أول من ينزل .

— سنمضى جميعا اذا ما مضى اى شخص آخر .

نظـــر « بج بوى » باهتمام فى جميع الاتجاهات . ولمـــا لم ير أحد أخذ يخلع ملابسه .

— آخر من ينزل سيكون كلبا ميتا .

— انها أمك !

— انه ابوك !

— انه ابوك وأمك معا !

وخلعوا ملابسهم وألقوا بها مكومة تحت شجرة . وبعد ثلاثين ثانية وقفوا سودا وعراة على طرف الساحة تحت جسر منحدر . ومس « بج بوى » المـــاء بقدميه حذرا . وقال :

— يا رجال هذه المياه باردة .

فقال « بوبو » ساحبا قدمه :

— سأذهب لارتدى ملابسى .

فأمسكه « بج بوى » من خصره قائلا :

— انك كالجحيم .

قال « بوبو » مستسلما :

— أبعد عن هذا الطريق ، يا زنجى .

قال « لستر » :

— القى به فى المـــاء .

— أدفعـــه .

فانحنى « بوبو » وأوسع فتحة ساقه ، وركز كل قواه ضـــد جسم « بج بوى » وكانت سواعدهما مشتبكة ببعضها البعض ، وتصارعا على طرف الساحة ، دون أن يتمكن أحدهما من الالقاء بالآخر .

— تعال ، هيا ندفعهما الآن فى المـــاء .

— وهو كذلك .

ودفع « لستر » و « بوك » الجسدين المتشابكين دفعة قوية وهما يضحكان فسقط « بج بوى » و « بوبو » مرسلين انعكاسات فضية فى ضوء الشمس وعندما ارتفع رأس « بج بوى » قـــال مستسلما :

— ايها اللقيط .

قال « بوبو » وهو يهز رأسه ليزيل المـــاء عن عينيه :

— كنت أنت الذى دفعتنى .

وغاصا غوصا سطحيا ثم أرتفعا وأصـــطدما عبر المـــاء . تصاعد المـــاء المختلط بالطين . وسبحا على ظهريهما وصـــارا فى المياه الضحلة ، يتجاذبان أنفاسا عميقة ويفركان عيونهم .

— تعالوا .

— يا رجل ، ان المياه رائعة .

تردد « لستر » و « بوك » :

همس « بج بوى » الى « بوبو » :

— هيا نبللهما .

وقبـــل أن يتمكن « لستر » و « بوك » من الابتعـــاد ، كانا يقطران بللا من حفنات المـــاء الملقى عليهما .

— آه ، آه .

— يا زنجى ، ان الميـــاه باردة .

فناداهما « بج بوى » :

— هيا أنزلا .

قال « بوك » :

— نحن منتظران فربما أتى « ووف » الآن .

— أنظرا الآن لتريا ما اذا كان أحد قادما .

فركعا على ركبتيهما ونظرا بين الأشجار .

— لا يوجد أحد .

— تعال لنذهب .

وساروا فى المــاء ببطء ، وهم يتوقفون كلما تقدموا خطوات قليلة ليلتقطوا أنفاسهم ونشبت معركة مائية بائسة . وبعيون مغمضة وأجساد متراجعة ، أخذوا يقذفون المــاء فى وجوه بعضهم البعض بكفوفهم .

— ايه ، توقفوا .

— نعم ، فانى على وشك الغرق .

وساروا معا فى المــاء حتى بلغ ارتفاعه الى سررهم ، يضربون ويغمضون عيونهم ثم يفتحونها . ودفع « بج بوى » « بوبو » محاولا قلبه قائلا :

— أنظر الى الخارج يا زنجى .

— لا تصح عاليا هكذا .

— نعم ، فيمكنهم سماع صوت فمك الكبير على بعد ميل .

— هكذا المــاء ، بارد جدا بالنسبة لى .

— هذا لأنها أمطرت أمس .

وسبحوا عابرين وعائدين مرة ثانية .

— أتمنى لو لدينا مكان اكبر لنسبح فيه .

— يمتلك البيض الكثير من ســـاحات السباحة لكننا لا نملك شيئا على الاطلاق .

— تعودت أن أستحم فى كل « المسيسبى » عندما كنا نعيش فى « فكسبرج » .

وضع « بج بوى » رأســه تحت المــاء وكتم نفسه . وجــاء صوت شبيه بصوت الدرفيل :

— هيا ، ليكن كل منا درفيلا .

وذهب كل منهم الى ركن من البحيرة ووضع فمه تحت ســطح المــاء مباشرة ولوح كالدرفيله وخرجوا متعبين وجلســوا تحت الجسر .

— اننى اشبه بالقوقع .

— وأننا أيضــا .

— دعونا نبقى حتى نجف .

— آآآه ، اننى أشعر بالبرد .

وظلوا قابعين فى الشمس ، يطردون رعدة البرق . وبعــد ما جف بعض المــاء عن أجســادهم ، أخذوا يتكلمون من خــلال أسنان مصطكة .

— ماذا تفعلون اذا جاء كل رجال « هارفى » هنا الآن ؟

— أجرى بأقصى ما يمكننى من سرعة .

— يا رجل .

— سأجرى بأقصى سرعة خشية أن يطلق على رصاصة سوداء تخترقنى .

— لكن لنفرض انه كانت معه بندقية ؟

— آه ، يا زنجى ، اخرس .

كانوا صامتين . ومروا بأيديهم على سيقانهم الرطبة مزيلين قطرات الماء منها ثم راقبت عيونهم الشمس البراقة على سطح البحيرة الممتدة . ومن بعيد اطلق قطار صفيره .

— هناك يذهب رقم سبعة .

— متجها الى الشمال .

— علمها اسفل الخط .

— يا رفاق ، سأذهب يوما الى الشمال .

— وأنا أيضا ، يا رجال .

— يقولون أن الملونين فى الشمال يحظون بحقوق المساواة .

وأخذوا يفكرون . ورفرفت فراشة سوداء على حافة المياه . وغرّدت نحلة . ومن مكان ما جاء عبير حلو لزهرة . واستطاعوا بصعوبة سماع الهداهد تصفر فى الغابات . وتقلبوا من جانب

لآخر تاركين أشعة الشـــمس تجفف جلودهـــم وتدفىء دماءهم . وقطفوا مجموعة من العشب وقضموها .

— آه .

ونظروا لأعلى وشفاهم مفترقة .

— آه .

كانت امرأة بيضاء متصلبة على طرف الجسر المقابل ، واقفة أمامهم مباشرة ، وقبعتها فى يدها وشعرها يلمع بأشعة الشمس .

همس « بج بوى » فى نفس خافت ؟

— انها امرأة . امرأة بيضاء .

وحملقوا ، وتحركت أيديهم بحركة فطرية تستر عوراتهم ثم تسلقوا على أقدامهم . أختفت المرأة البيضاء تدريجيا عن مستوى النظر . فوقفوا لحظة ينظرون الى بعضهم البعض .

همس « بج بوى » :

— هيا نبتعد عن هنا .

— أنتظر حتى تذهب بعيدا .

— هيا نجرى ، سيمسكون بنا عراة هكذا .

— ربما كان هناك رجل معها .

قال « بج بوى » :

ـ تعالوا لنرتدى ملابسنا .

وأنتظروا لحظة أطول ، يتسمعون . فقال « بج بوى » :

ـ ماذا هناك ؟ سأرتدى أنا ملابسى .

وتسلق الجسر ممسكا بمجموعة من الحشائش القصيرة .

ـ لا تجر الى الخارج هناك الآن .

ـ تعالوا أيها الأغبياء .

تـردد « بوبو » ونظر الى « بج بوى » ثم الى « بـوك » و « لستر » وقال :

ـ سأنضم الآن الى « بج بوى » لأرتدى ملابسى .

قال « بوك » :

ـ لا تجر خارجا هكذا وأنت عار ، يا غبى . أنت لا تعلم من بالخارج هناك .

كان « بج بوى » يتسلق حافة الجسر وهمس :
ـ تعالوا .

فتسلق « بوبو » خلفه . على بعد خمسة وخمسين قدما وقفت المرأة . كانت تضع احدى يديها على فمها . وتعلق كل من «بوك» و « لستر » بأصابعهما واختلسا النظر فوق الحافة . قـال « لستر » :

— تعالوا هنا ، هذه المرأة خائفة .

وقف « بج بوى » متحيرا ، ونظر الى المرأة ، ونظر الى كومة الملابس . ثم نظر الى « بوك » و « لستر » .

— هيا ، نرتدى ملابسنا .

وتقدم خطوة .

صاحت المرأة :

— جيـــم .

توقف « بج بوى » ونظر حوله . ويداه معلقتان بلا حركة على جانبه . كانت المرأة بعينيها الواسعتين ، ويدها على فمهـــا ، تتراجع بعيدا نحو الشجرة حيث تقبع ملابسهم فى كومة .

جرى « بوبو » الى جانب « بج بوى » قائلا :

— يا « بج بوى » تعال هنا الآن وانتظر حتى تذهب .
أضـــاف :

— هيا نذهب الى المنزل ، فسيمسكون بنا هنا .

وشعر « بج بوى » كأن حنجرته مقيدة . قال :

— يا سيدتى ، نريد أن نحضر ملابسنا .

تسلق « بوك » و « لستر » الجسر ووقفا مترددين . جرى « بج بوى » نحو الشجرة .

وصرخت المرأة :

— جيم .. جيم .. جيم ..

وقف « بج بوى » أسود عاريا على بعد ثلاثة اقدام منهـا وقال مرة اخرى بكلمات آلية :

— نريد أن نحضر ملابسنا .

وأحدث حركة .

— أذهب بعيـدا . أذهب بعيـدا . لقد أخبرتك بأن تذهب بعيـدا . فتوقف « بج بوى » ثانيا ، خائفا ، جـرى « بوبو » وأختطف الملابس . وحـاول كل من « بوك » و « لستر » ان يخلصا ملابسهما من يديه . وصرخت المرأة :

— ابتعد . ابتعد . ابتعد .

قال « بوبو » وهو يجرى نحو الغابات :

— هيا نذهب .

جنون .

توقف « بوك » عنـد حافة الجسر . ورأسه مشـدود الى الخلف وجسمه متقوس بتصلب على جانب واحد ، وسـقط على رأسه مرسلا انعكاسا براقا الى ضوء الشمس . فاهتزت صفحة البحيرة .

تراجع « بج بوى » و « بوبو » بعيدا ، وعيونهما مثبتة بخوف على رجل أبيض كان يجرى نحوهما . كانت معه بندقية ويرتدى بزة ضابط فى الجيش جرى الى جانب المرأة وأمسك يديها .

— هل أوذيت ، يا « برثا » ، هل أوذيت ؟
فحدقت فيه ولم تجب .

فاستدار الرجل سريعا . كان وجهه أحمر . ورفع البنـــدقية وصوبها الى « بوبو » . جرى « بوبو » عائدا ممسكا بالملابس أمام صدره .

— لا تطلق على الرصاص يا سيدى ، لا تطلق على الرصاص فأبعد « بج بوى » أتجاه البندقية ممسكا بماسورتها .

— أيها الأسود ابن الكلبة .

فأطبق عليها « بج بوى » يائسا

— دعنا نذهب أيها اللقيط الأسود

أتجهت فوهة المـــاسورة نحو السماء .

جنون .

كان الرجل الأبيض أطول وأثقل منه فألقى به الى الأرض . فأسقط « بوبو » الملابس ، وجرى عاليا وقفز على ظهر الرجل الأبيض .

— أيها السود أولاد الكلاب .

ترك الرجل الأبيض البنـــدقية . وأمال « بوبو » على الأرض وأخذ يضرب الصبى العارى بقبضتيه . فتعلق به « بج بوى » وأخذ يضرب الرجل على فمه بالمـــاسورة . فانهارت أســـنانه ، وسقط ، ورأسه يدور . كان « بوبو » عند قدميه .

— تعالى ، يا « بج بوى » ، هيا نذهب .

تنفس الرجل الأبيض بصعوبة ، ونهض وواجه « بج بوى » كانت شفتاه ترتعدان ، ورقبته وذقنه مبللتين بالدم . وتكلم سريعا :

— أعطنى هذه البندقية ، أيها الصبى .

بسط « بج بوى » البندقية وتراجع مبتعدا .

وتقدم الرجل الأبيض قائلا :

— أيها الصبى قلت أعطنى هذه البندقية .

تناول « بوبو » الملابس بين ذراعيه .

— اجر يا « بج بوى » ، أجر .

سار الرجل الى « بج بوى » فقال « بج بوى » :

— سأقتلك ، سأقتلك .

وترددت أصابعه نحو الزناد ...

توقف الرَجل وهو يغمض عينيه ويفتحهما ويفيض الدم . وغشيت عيناه . وأبيض وجهه ، وفجأة ، القى بنفسه على البندقية ، ويداه ممدودتان . جنون .

وسقط على وجهه .

— جيم ..

صرخت المرأة مرة ثانية ، وسقطت بضعف عند جذع الشجرة

اسقط « بج بوى » البندقية ، وعيناه متسعتان . ونظر حوله. كان « بوبو » يصرخ ممسكا بالملابس .

— « بج بوى » ، « بج بوى » . . .

نظر « بج بوى » الى البندقية ، وحاول أن يلتقطها ، لكنه لم يفعل . بدا انه فى مأزق . ونظر الى « لستر » ، ثم الى الرجل الأبيض ، وتتبعت عيناه شريطا رفيعا من الدم يسيل على الأرض.

غمغم « بوبو » :

— أنت لم تقتله .

— هيا نذهب الى المنزل .

واستدارا وهما عاريان وجريا نحو الغابة . وعندما وصلا الى سور الأسلاك الشائكة توقفا .

قال « بج بوى » :
— هيا نرتدي ملابسنا .

ودخلا بسرعة فى معطفيهما . أمسك « بوبو » بملابس «لستر» « بوك » قائلا :

— ماذا سنفعل بهذه ؟

حدق « بج بوى » ويداه معقودتان قائلا :

— اتركهـــا .

وتسلقا السور وجريا داخل الغابات وشجيرات الكروم وأوراق الأشجار تضرب وجهيهما . ومرة تعثر « بوبو » وسقط.

قال « بج بوى » :

— « تعال » .

فأخذ « بوبو » يصرخ ، والدم ينزف من جروحه ، قائلا :

— لقد جرحت .

— تعال . لا تصح. نريد أن نذهب الى المنزل قبل أن يمسكوا بنا .

قال « بوبو » مرة ثانية وعيناه ممتلئتان بالدموع :

— لقد جرحت .

فأمسك « بج بوى » بيده ، وجذبه معه قائلا :

— تعال .

— ٢ —

توقفا عندما بلغا نهاية الغابات . كان يمكنهما رؤية الطريق المفتوح الذى يفضى الى المنزل ، المنزل حيث الأم والأب . لكنهما تعلقا الى الخلف خائفين . كانت الظلال الكثيفة الملقاة من الأشجار صديقة وحامية . لكن اشعة الشمس البراقة باتساعها والممتدة فوق الحقول كانت قاسية بلا رحمة . فانزويا بجانب شجرة متآكلة عجوز .

قال « بج بوى » :

— أوشكنا على العودة الى المنزل .

قال « بوبو » نصف متسائل :

— سيحضرون لاغتيالنا .

فلم يجب « بج بوى » .

قال « بوبو » ثانية :

— سيحضرون لاغتيالنا .

فارتعد « بج بوى » قائلا :

— أسكت .

انه لا يريد أن يفكر فى ذلك . لم يكن بامكانه ان يفكر فيه ، لم تكن هناك سوى فكرة واحدة . وقد تعلق بها تعلقا أعمى . كان عليه ان يذهب الى المنزل ، المنزل حيث الأم والاب .

ارتفعت رأساهما لأعلى بغتة . والتقطت عيونهما بريق عربة تتحرك فسقطا على الأرض وانزويا بجانب شجرة . وعبر قمة التل جاء الطرف الأعلى لقبعة . وجه أبيض . ثم ذراعان فى قميص أزرق . وجاءت عربة يجرها حصانان ملء البصر .

كتم « بج بوي » و « بوبو » انفاسهما منتظرين . تتبعت عيونهما العربة حتى ضاعت فى الغبار حول منحنى فى الطريق .

قال « بج بوى » :

ـ علينا بالذهاب الى المنزل .

قال « بوبو » :

ـ انى مجروح .

ـ تعال . هيا نجلس فى الحقول .

وجريا حتى بلغا حقول الذرة . ثم سارا ببطء ، لأن جـذور اعواد الذرة من محصول العام المـاضى ورمت اقدامهما .

ووقع بصرهما على قمينة طوب .

قال « بج بوى » لا هنا :

ـ انتظر دقيقة .

ووقفـا .

ـ سأذهب الى منزلى الآن ومن الافضل أن تذهب الى منزلك

فاتسعت حدقتا عينى « بوبو » قائلا :

ـ انى مجروح .

ـ من الأفضل ان تمضى .

ـ دعنى أذهب معك ، فسيمسكون بى ...

ـ اذا امكنـك الذهاب الى المنزل فربمـا اسـتطاع اهلك ان يساعدوك فى الابتعاد .

وواصل « بج بوى » سيره . فتعلق به « بوبو » قائلا :

— دعنى أذهب معك .

فتخلص منه « بج بوى » ، قائلا باستسلام وهو يجرى :

— اذا بقيت هنا فسيقتلونك .

وبعد أن اجتاز حوالى خمس وعشرين ياردة استدار ونظر ، كان « بوبو » طائرا داخل الغابات كالريح .

تباطأ « بج بوى » عندما جاء الى خطوط السكك الحديدية . واحتار فى هل يذهب عبر الشوارع أم يخترق الممر السفلى . وصمم أن يجتاز الخطوط الحديدية . فيمكنه أن يهرب من قطار أكثر من أن يهرب من جماعة متعطشة لسفك الدماء .

وقفز عبر الحدود ، ناظرا الى الأمام والى الخلف . آلمه خده ، وشعر به ، وخرجت يده ملطخة بالدماء . فمسحها بعصبية فى معطفه .

وعندما جاء الى السور الخلفى لمنزله ، ألقى بنفسه فوقه . فسقط بين مجموعة مذعورة من الدواجن . وحاول كتكوت أن يسرع قبله . فانزلق وسقط أمام درجات المطبخ ، وصرخ عاليا كانت الأرض زلقة بماء الصحون الدهنى فلهث ، وتدحرج داخل البوابة .

— يا للسوء ، يا « بج بوى » ، أى سوء وقعت فيه .

وقفت أمه مشدودة وسط الأرض . وقبع « بج بوى » — صامتا — على مقعد مريح يرجع الى الوراء بين الحين والحين .

كانت الآوانى تغلى على الموقد . والمطبخ يموج برائحة الطعام المطهو .

ـ ماذا حدث يا « بج بوى » ؟

فنظر اليها ، غير قادر على التكلم ، ثم انفجر يذرف الدموع . فجاءت وشعرت بالجروح التى بوجهه .

ـ ماذا حدث لك يا « بج بوى » ؟ هل اذاك أحد ؟

ـ انهم قادمون خلفى يا أمى . انهم خلفى ...

ـ من .

ـ آه .. آه .. نحن ..

ـ يا « بج بوى » ، أى سوء وقعت فيه ؟

فغمغم ببساطة :

قتلى « لستر » « بوك » .

قتـــلا .

فغمغم نعم .

ـ « لستر » و « بوك » .

فغمغم نعم ، يا أمى .

ـ كيف قتلا ؟

ـ أطلق عليهما الرصاص .

فأنت وهى تهصر يديها :

— يا الهى يا رحيـــم ، اغمرنا برحمتك جميعا . هــذه الالام تتزايد ، هذه الالام تتزايد !

— والآن لقد قتلته يا أمى ..

فحملقت ، محاولة ان تفهم .

— ماذا حدث يا « بج بوى » ؟

— حاولنا ان نحضر ملابسنا من الشجرة ...

— اى شجرة ؟

— كنا نسبح ، يا امى . حتى اتت المراة البيضاء ...

— امراة بيضاء ؟ ...

— نننعم (نعم) . كانت عند ساحة السباحة ...

— يارب ارحمنا . كنت اعلم انكم ايها الاولاد راخلون مادمتم تفعلون مثل هذا !

جرت فى الصالة ونادت :

— « لوسى » .

— أمى ؟

— تعالى هنـــا .

— أمى ؟

ـ اقول ، تعالى هنا .

ـ ماذا تريدين ، يا امى ؟ اننى اخيط ؟

ـ ايتها الطفلة ، الا تأتين كما اطلبك ؟

جاءت « لوسى » الى الباب ممسكة بيديها مئزرا لم تنتسه من حياكته . وعندما رأت « بج بوى » ، نظرت بفزع الى أمها .

ـ ماذا حدث ؟

ـ أين ابى ؟

ـ انه فى الخارج امامنا .

ـ احضريه سريعا .

ـ ماذا حدث ، يا أمى ؟

ـ قلت ، اذهبى واحضرى أباك .

جرت « لوسى » خارجة . غاصت الأم فى كرسى ممسكة بخرقة لغسل الصحون وفجأة جلست معتدلة .

ـ يا « بج بوى » ، ظننت انك كنت فى المدرسة .

نظر « بج بوى » الى الأرض :

ـ كيف لم تذهب الى المدرسة ؟

ـ ذهبنا الى الغابات .

ـ سـعلت .

— لقد عملت كل ما بوسعى من اجلك ، يا « بج بوى » والله وحده هو الذى يمكنه أن ينقذك الآن .

— أمى ، لا تدعيهم يمسكون بى ، لا تدعيهم يمسكون بى .

ثم جاء والده داخل البوابة . حدق فى « بج بوى » ، ثم فى زوجته . وسأل بحزم :

— ما الذى فعله « بج بوى » الآن ؟

— « سول » ، لقد وقع « بج بوى » فى مشاحنة مع البيض.

ففغر الرجل العجوز فاه ، وقلب النظر من الواحد الى الآخر.

— « سول » ، يجب علينا أن نذهب بعيدا عن هنا .

فأمسك الرجل العجوز بكتفى « بج بوى » وحدق فى الجروح التى بوجهه وقال :

— أفتح فمك الآن وتكلم . ما الذى فعلته ؟

— كنت مع « لستر » و « بوك » و « بوبو » خارجين من مساحة سباحة « هارف » العجوز ...

— « سول » ، أنها امرأة بيضاء .

تراجع « بج بوى » مذعورا . وضغط الرجل العجوز على شفتيه وحدق فى زوجته نظرت « لوسى » الى أخيها مشدوهة كأنما لم تره من قبل .

أرعد الرجل العجوز ، بنغمة بائسة من صوته قائلا :

— ماذا حدث ؟ الا يمكنك أبدا أن تتحدث ؟

فابتدأ « بج بوى » قائلا :

— كنا نستحم ، حتى أتت امرأة بيضاء الى أعلى الساحة . فخرجنا منها وذهبنا لنرتدى ملابسنا حتى يمكننا أن نذهب بعيدا، فأخذت تصرخ وكانت ملابسنا بجوار الشجرة حيث كانت تقف ، وعندما تقدمنا لنحضرها أخذت تصرخ . فأخبرناها اننا نريد ملابسنا .. أنت ترى انها كانت واقفة بجوار ملابسنا ، والآن عندما ذهبنا لنحضرها اخذت تصرخ .. فأحضر « بوبو » الملابس، ثم أطلق الرصاص على « لستر » ...

— من أطلق الرصاص على « لستر » ؟

— الرجل الأبيض .

— أى رجل ابيض ؟

— آه ، يا والدى ، كان جنديا ومعه بندقية .

— جنــدى ؟

— نننعم (نعم)

— جنــدى ؟

— نننعم (نعم) ، يا أبى ، جندى .

فتجمدت جبهة الرجل العجوز مفكرا .

— حسنا وعندئذ ماذا فعلتم جميعا ؟

قال « بوك » .

حســـنا ، لقد أحضر بندقية ، وعندئذ واصل الجرى ثم أطلق الرجل الرصـــاص على « بوك » ، فسقط في ساحة الســباحة ولم نر اكثر من ذلك .. كان ملتصقا بنا عندئذ . ونظر الى المرأة البيضاء ثم واصـــل أطلاق رصاصة على « بوبو » فأمســكت البندقية ، وعنـــدئذ اخذنا نتعارك . قفز « بوبو » على ظهره فاستمر في ضربة لـــ « بوبو » ثم ضربته بالبندقية ثم تحول الى وعندئذ أطلقت عليه الرصاص ثم جرينا ...

— من شاهدكما ؟

— لا احـــد .

— أين « بوبو » ؟

— ذهب الى المنزل .

— الم يجر احد خلفكما ابدا ؟

— لا بكل تاكيد .

— هل رايت احـــدا ؟

— لا بالتأكيد . لا احد سوى رجل ابيض ، لكنه لم يرنا .

— كم مضى من الوقت منذ غادرتما ساحة السباحة ؟

— قليل من الوقت ونحن عائدان .

فمسح الرجل العجوز يده عبر عينيه وســـار الى البـــاب ، وتحركت شفتاه لكنهما لم يخرجا كلمات .

« سول » ما الذى سنفعله ؟

ابتدأ الرجل العجوز قائلا :

ـــ « لوسى » ، اذهبى الى الأخ « ساندرز » واخبريه اننى اريده هنا . ثم اذهبى الى الأخ « جنكينز » واخبريه باننى اريده هنـــا ، وأذهبى الى « الدريترز » وأخبريه باننى أريده هنـــا ، ولا تقولى شيئا لأى شخص عدا من ذكرتهم لك . وعندما تنتهى من هذا عودى مباشرة .

اذهبى الآن :

ألقت « لوسى » مئزرها على ظهـــر كرسى وجرت اســـفل الدرجات . وانحنت الأم تصيح وتصلى . وسار الرجل العجوز ببطء الى « بج بوى » .

ـــ يا « بج بوى » ؟

فابتلع « بج بوى » لعابه .

ـــ انى اتحدث اليك .

ـــ ننعمم (نعم) .

ـــ كيف لم تذهب الى المدرسة هذا الصباح .

ـــ ذهبنا الى الغابات .

ـــ ألم ترسلك امك الى المدرسة ؟

ـــ ننننم (نعم) .

— فكيف ذهبت ؟

نظر « بج بوى » الى اصـــابعه وضمها الى صـــدره وتلوى فى مقعده .

— انى اتحدث اليك .

فاستوت زوجته وقالت راجية :

« ســـول » .

نصمت الرجل العجوز ، واخذ يجذب بعصبية شرائط معطفه عند الكتف .

— ما طول المراة التى كانت هناك ؟

— ليست طويلة .

— هل كانت صغيرة ؟

— ننعم (نعم) . كالنبتة .

— هل قلتم لها اى شىء ؟

— لا بالتأكيد . قلنا فقط اننا نريد ملابسنا .

— وماذا قالت ؟

— لا شىء يا أبى . تراجعت فقط الى الخلف عند الشـــجرة واخـــذت تصرخ . فحدق الرجـــل العجوز ، وحاولت شـــفتاه ان تكون سؤالا .

ــ يا « بج بوى » ، هل ضايقتموها ؟

ــ لا بالتأكيد ، يا أبى . لم نمسها .

ــ ما طول المسافة التى جاء منها الرجل الأبيض ؟

ــ من بعيـــد .

ــ ماذا قـــال ؟

ــ لا شىء . سبنا فقط .

وفجأة غادر الرجل العجوز المطبخ .

ــ أمى ، الا أستطيع أن أذهب ، لأنهم سيمسكون بى .

ــ سيفعل « سول » ما يمكنه .

ــ أمى ، أمى ، لا أريدهم أن يمسكوا بى ..

ــ ســيفعل « سول » ما يستطيعه . لا أحــد سوى الله يستطيع أن ينقذنا الآن .

عاد الرجل العجوز ببندقيته سريعة الطلقات واسـندها الى ركن . فنظر « بج بوى » اليها منجذبا .

كانت هناك طرقة على الباب الأمامى .
ــ « ليزا » انظرى من هناك .

فذهبت . كانا ساكتين ، ينصتان . كانا يستطيعان سـماعها تتكلم .

— من هنـــاك ؟

— انـــا .

— من ؟

— أنا الأخ « سـالدوز » .

— تعالى ادخل « سول » ينتظرك .

وقف « سـاندوز » بالبوابة مبتسما .

— أرسلت فى طلبى ، ايها الأخ « موريسون » ؟

— يا أخ « سـالدورز » نحن هنا فى اشكال عويص .

فسـار « سـاندوز » مخترقا المطبخ .

نعـــم ؟

ذهب « بج بوى » الآن وقتل رجلا ابيض .

توقف « سـاندوز » قليلا . ثم اقترب ، بوجه مضطرب وفـــم مفغور ، تحركت شفتاه مرات عديدة قبل أن يتمكن من الكلام .

— رجل ابيض ؟

فصاح « بج بوى » جاريا الى الرجل العجوز :

— أنهم قادمون ليقتلونى ، انهم قادمون ليقتلونى .

— « سول » الا تستطيع ان تذهب به بعيدا فى اى مكان ؟

قال « سـاندوز » ممسكا بمعصمى « بج بوى » :

— الآن حالا ، لا تخش شيئا ، لا تخش شيئا .

وانزلق « بج بوى » الى الارض . فحملوه الى مقعد . فامسكته أمه لصقها واسندت راسه الى صدرها .

سأل « ساندورز » :

— ما الذى سنفعله ؟

— لقد ارسلت فى طلب الآخرين « جنكينز » و « الدريترز » .

أسند « ساندوز » كتفيه الى الحائط . وعندما مثل أمامه المعنى الكامل لهذا المأزق ، صرخ قائلا :

— سيقومون بهجوم لسفك الدماء ...

علا صوته وسقطت عيناه على البندقية سريعة الطلقات وجاء وقع أقدام سريعة على الدرج . فاستداروا الى الباب . دخلت « لوسى » تجرى وتصيح وتبعها « جنكينز » فقابله الرجل العجوز فى منتصف الحجرة آخذا بيده .

— اننا فى اشكال بالغ السوء هنا ، أيها الأخ « جنكينز » لقد قتل « بج بوى » رجلا أبيض . ان عليكم مساعدتى .

فنظر « جنكينز » بقسوة الى « بج بوى » .

قالت « لوسى » :

— اخبرنى « الدريترز » انه قادم .

سأل « جنكينز » :

— متى حدث كل هذا ؟

فقال الرجل العجوز :

— قريبا منذ حوالى الساعة ..

سأل « جنكينز » :

— ما الذى سنفعله ؟

قال الرجل العجوز يائسا :

— أريد أن ننتظر حتى يحضر « الدريترز » .

قال « ساندوز » :

— لكن علينا ان نعمل سريعا اذا أردنا عمل شىء . فسنقع فى متاعب مادمنا واقفين هنا هكذا .

افترق « بج بوى » عن أمه قائلا :

— والدى دعنى أذهب الآن . دعنى أذهب الآن .

— أبق ساكنا ، يا « بج بوى » .

— أين يمكنك أن تذهب ؟

— أستطيع أن أتعلق بقطار بضائع .

قال « جنكينز » :

— هذا هو الموت . سيلاحظونك جميعا .

سأل الرجل العجوز :

— هل يمكنكما أن تساعدانى ببعض النقود ؟

فهزا رأسيهما .

« سول» ، ما الذى يمكننا ان نفعلة ؟

كانت هناك طرقة اخرى على الباب .

فتراجع الرجل العجوز متلصصا الى البندقية .

ـــ « لوسى » ، أذهبى .

فنظرت « لوسى » اليه مترددة .

قال « جنكينز » :

ـــ يحسن أن اذهب .

كان هذا « الدربترز » ودخل مسرعا .

ـــ مساء الخير لكل شخص .

ـــ كيف حالك يا « الدر » ؟

ـــ مساء الخير .

ـــ كيف حالك اليوم ؟

دار « بترز » ببصره حول المطبخ المزدحم بالأشخاص .

ـــ ماذا حدث ؟

ابتدأ الرجل العجوز قائلا :

ـــ « الدر » ، اننا فى أشـــكال عويص « بج بوي » وبعض الصبية ..

ـــ .. لستر و بوك و بوبو ....

ـــ ... كانوا فى ساحة سباحة « هارفى » ..

قال « بترز » مواسيا :

— أنه فعل مثلما نفعل نحن الزنوج ...

وأوسع فتحة ساقيه ووضع ابهامه فى حمالتى قميصه الداخلى

— .. وعندئذ تجىء امرأة بيضاء ..

فقال « بيترز » مقتربا :

— نعـم ؟

— .. هناك ، ويحاول الأولاد أحضار ملابسهم حيث تركوها تحت شجرة . حسنا ، أخذت تصرخ . كلكم ترون الآن ؟ ربما ظنت ان الأولاد قادمون خلفها . ثم أطلق رجل ابيض فى بزه جندى الرصاص على أثنين منهم فقتلهما .

— .. « لستر » و « بوك » ...

— ايه . كان هذا الرجل ابن « هارفى » .

— تعنى أبنه الذى كان فى الجيش ؟

— تعنى جيم ؟

قال « بيترز » :

— نعم ، فالصحف تقول انه هنا فى اجازة من عمله .

اذن فالمرأة التى شاهدها الأولاد كانت زوجته ..

فحدقوا فى « بترز » عندما عرفوا الآن اى رجل ابيض قد قتل . صارت مخاوفهم يقينية .

— ثم ماذا حدث أيضا ؟

ـــ اطلق « بج بوى » الرصاص على الرجل ...

ـــ ابن « هارفى » ؟

ـــ لقد عملها ، يا « الدر » كان على وشك أن يقتله بالرصاص اذا لم يفعل هو ...

قال «بترز » :

ـــ يا الهى .

ونظر حوله ووضع قبعته على رأسه .

ـــ منذ متى حدث هذا ؟

ـــ منذ حوالى الساعة ، كما أعتقد .

ـــ هل علم البيض بعد ؟

ـــ لا أعلم . يا « الدر » .

قال « بترز » :

ـــ أنتم جميعا من الأفضل أن تذهبوا بـــ « بج بوى » بعيدا الآن لانكم اذا لم تفعلوا هذا فسيصبح قتيلا ...

جرى « بج بوى » اليه قائلا :

ـــ الى اين أستطيع أن اذهب يا « الدر » ؟

تجمعوا حول « بترز » الذى وقف بساقيه المفتوحتين باتساع، ناظرا لأعلى الى السقف .

قال « جنكينز » :

— ربما أستطعنا تخبئته فى الكنيسة حتى يمكنه أن يذهب بعيدا عن هنا .

تقوست شفتا « بترز » قائلا :

— الآن ، أيها الأخوة ، لن يحدث هذا أبدا .

فسيمسكون به هناك . وعلى أى حال ، اذا أمسكوا به هناك ، فسيحطمنا ذلك جميعا . علينا أن نبعد الصبى عن البلدة ...

أتجه « ساندوز » نحو الرجل العجوز . وقال فى همس :

— أسمع يا بنى ، هل سيحمل الشخص الذى يسافر الى شركة «ماجنوليا الكسبرس » بضائع فى عربته الى شيكاغو فى الصباح . اذا أستطعنا أخفاء « بج بوى » فى أى مكان حتى الصباح ، يمكننا ان نضعه فى العربة .

قال « بج بوى » ملتمسا :

— أبى ، اذا سمحت ، دعنى أذهب مع « ويل » عندما يسافر فى الصباح .

فحدق الرجل العجوز فى « ساندوز » قائلا :

— هل تعتقد أن ذلك هو الحل السليم ؟

قال « بترز » :

— انه الشىء الوحيد الذى يمكنك ان تفعله .

— لكن أين سنخبئه حتى ذلك الحين ؟

ـ فى أى وقت ستسافر أيها الصبى فى الصباح ؟

ـ فى السادسة .

كانوا هادئين ، يفكرون . وغلى الماء فى الغلاية التى على الموقد .

ـ أبتاه ، انى اعرف أين يمر « ويل » بالعربة خارجا على طريق « بولارد » ، أستطيع أن أختبىء فى واحدة من القمائن ..

ـ أين ؟

ـ فى أحدى قمائنهم التى نبنيها ...

فأتت الأم قائلة :

ـ لكنهم سيمسكون بك هناك .

ـ لكن ليس هناك أى مكان غيره ليذهب اليه .

قال « بج بوى » :

ـ هناك حفر كبيرة بدرجة تمكننى من البقاء حتى يمر « ويل » ولو سمحت ، يا والدى دعنى أذهب قبل أن يمسكوا بى .

ـ دعه يذهب .

ـ لو سمحت يا أبى ...

تنفس الرجل العجوز عميقا .

ـ « لوسى » أحضرى حاجاته .

قالت الأم بحزن ، ملقية بنفسها على « بج بوى » :

— « سول » ، سيمسكون به فى الخارج هناك .

فجذبها « بترز » بعيدا .

— ايتها الأخت « موريسون » ، اذا لم تدعيه يذهب بعيـدا عن هنا فسيمسكون به ويذهب الى حيث اله السماء .

جاءت « لوسى » تجرى بحذاء « بج بوى » ووضعته فى قدميه . وثبت الرجل العجوز قبعته على رأسه . وذهبت الأم الى الموقد وأفرغت فطيرة الذرة فى مريلتها ، ولفتها ، وفكت أزرار معطف « بج بوى » ، ووضعتها ودفعتها فى فتحة صدره .

— هذه بعض الأشياء لتأكلها ، صـل يا « بج بوى » ، لأن ذلك هو كل ما يستطيع أى شخص أن يفعله الآن ...

شد « بج بوى » الى الباب ، وامه متعلقة به .

— دعيه يذهب ، أيتها الأخت موريسون .

— أجر بسرعة ، يا « بج بوى »

جرى « بج بوى » عبر الفناء ، مبعثرا الدواجن وتوقف عنـد السور . والتفت الى الخلف قائلا :

— اخبروا بوبو أين انا واخبروه بأن يأتى .

— ٤ —

أتجه الى خط السـكة الحديد ، جاريا مباشرة نحو الشمس الغاربة ، وامسك بيده اليسرى جيدا على قلبه قابضا على لفة

خبز الذرة حيث وضعت . فى الوقت الذى يتعثر من القيود ، لأن حذاءه كان مقيدا ويؤلم قدميه . وزوره متفجر بالجفاف ، فلم يجر به ماء منذ الظهر .

وعبر الخط الحديدى وأجتاز قمة تل ، متتبعا طريق «بولارد» ، انزلقت قدماه وغاصتا فى التراب . أحتفظ بعينيه فى وضع راسى مستقيم ، خائفا من هذه الشجرة ، كل شـــجرة . تمنى لو كان الليل قد أرخى سدوله الآن لأمكنه فقط أن يصل الى القمائن دون أن يقابل أحـــدا . وفجأة جاءته فكرة كالضربة ، اعتاد ســـماع جماعات العجائز يحكون أقاصيص عن كلاب الصـــيد الدامية ، وجعله الخوف يبطىء فى جريه . لم يفكر أحد منهم فى ذلك لنفرض أن كلاب الصيد الدامية وضعت فى طريقه ؟ يا للسوء . لنفرض أن مجموعة منهـــا عوت ومزقته أربا ؟ فســـار هادئا ، وزحفت قدماه . نعم ، هذا ما سيرسلونه خلفه ، كلاب الصـــيد شاربة الدماء . وعندئذ لن يكون أمامه أى طريق للهرب . لمـــاذا لم يدعه أبوه يأخذ البندقية . وعندما تأتى الجماعة الفتاكة فانه سيأخذ البعض معه .

على البعد سمع قطارا يقترب . صدمه ورده الى احســـاس حـــاد بالخطر فجرى ثانية ، قدماه الكبيرتان ترتفعان وتنخفضان فى التراب . كان متعبا وكادت رئتاه تنفجران من الجرى . بلل شفتيه ، متعطشا للماء . وعندما تحول عن الطريق عبر حقـــل محروث ، سمع القطار يزأر فى اعقابه . فزاد من سرعة جريه . وملأه الرعب .

كان هناك قريبا الآن . كان يمكنه رؤية طين القمينة الأسود على جانب التل المنحدر . اذا دخل مرة والحدة فى قمينة فسيصبح فى أمان . وللحظة قصيرة أخيرا . فكر فى البندقية مرة ثانية .

اذا كان معه ـــ فقط أى شىء أو أى شخص يتكلم معه .. لكان هذا مريحا « بوبو » لو كان « بوبو » معه .. لقد نسى « بوبو » تقريبا . ســيحضر « بوبو » بندقيته ، هو يعرف انه ســيفعل هــذا . وعندئذ سيستطيعان معا قتل كل الجماعة المتعطشــة لسفك الدماء . ثم فى الصباح سيدخلان فى عربة « ويل » ويذهبان بعيدا الى « شيكاغو » ..

وتباطأ سائرا ، وهو ينظر الى الخلف والى الأمام . وهبت ريح خفيفة فوق الحشائش . وقفز صرصور على خده فأزاحه بعيدا وبجوار الأشــجار تعلقت شمس حمراء وطارت حشرتان كبيرتان أمام تلك الشمس . وارتعد فقد صار باردا وكان العرق الذى على جسده يجف .

ووقف عند أسفل تل محاولا أن يختار بين أثنتين من القمائن شامختين عاليتين فوقه . وذهب الى اليسرى ، لأنها كانت المكان الذى حفره مع « بوبو » و « لستر » و « بوك » ، فى الأسبوع الأخير .. ونظر حوله مرة ثانية ، كانت الأرض مقفرة . وصــعد الى الجسر ووقف عند صف من الحفر التى يصل عمقها الى أربعة أو خمسة أقــدام فى الأض . وذهب الى أكبرها ونزل فيهــا . وتصلب عندما التقطت أذناه صوت شىء مر سريعا . فجــرى الى الخلف خطوات قليلة وركع على أطراف أصابعه . كانت سته أقدام من حية منزلقة خارج الحفرة وغاصة داخل التراب . نظر « بج بوى » حوله جيدا باحثا عن عصا . وجرى أسفل المنحدر، محدقا فى العشب . وقفز متعلقا بفرع شجرة . فخلعه واختبره بضربة فى الأرض . وزحف بحــذر صاعدا المنحدر وعصــاه مصوبة . وعندما صار على بعد ســبعة أقدام من الحية توقف وحرك العصا . تعقدت الحية ، وأرتفع صوت فحيحها ، وأستعد

رأس مفلطح للضرب . فتحرك الى اليمين ، وتبعه الراس المفلطح واللسان الأسود المختلط بالأزرق يقذف بعيدا ما يشبه الشرر ، فتحرك الى اليسار ، وتبعه الرأس المفلطح الى هناك ايضا .

وقف ، يصر على أسنانه كان عليه أن يقتل هذه الحية ، قبل أن تقتله . كانت هذه أسلم حفرة على جانب التل . حرك العصا ثانية ، ناظرا الى الحيـــة مفكرا فى الجماعة المتعطشة الى سفك الدماء بجانبه . فقفز الرأس المفلطح لارتفاع أعلى ، وقفز بعصاه على كتفه ، ملوحا . اخترقت العصا الهواء ، ممسكة بالحية عند جانب رأسها ، مبعدة اياها عن التفاف الجسم . كانت هنـــاك شعلة الم . ثم صار « بيج بوى » موجهـــا الضربات القاسية ، الواحدة تلو الاخرى . حارب بقسوة حتى احمرت عيناه ، وظل يضرب حتى رقدت الحية ساكنة ، ثم داسها بكعبه ، دافنا رأسها فى الطين .

ووقف مترنحا مبللا وزوايا شفتيه بيضـــاء ممتلئة بالرغـــاء . وبصق وارتعد .

وبحذر ، ذهب الى الحفرة وحدق . وأراد عود ثقـــاب . وتخيل أن باقى الحيات هناك فى انتظاره . فوضع العصا فى الحفرة وحركها حولها وتوقف ، محدقا مرة ثانية . لابد أن كل شىء على ما يرام . ونظر عبر جانب التل ، وتراجعت عينـــاه الى الحيـــة الميتـــة . ثم ركع على قدميه وهبط بظهره ببطء داخل الحفرة .

وعندما صار بداخلها ، شعر بأنه لابـــد هنـــاك حيات فى أثره مستعدة لضربه . وبدا كأنه يستطيع أن يراها ويشعر بهـــا هناك، منتظرة بترقب فى التفاف ، وفى الظـــلام تصور أنيابا طويلة بيضاء مستعدة للغوص فى رقبته ، فى جانبـــه ، فى ساقيه . وأراد أن

ـرج من الحفرة ، لكنه ظل ساكنا . وقـــال لنفسـه ، بأنـــه
لو كانت هنا اى حيات ، لكانت عضته فى الحال . وفارقه بعض
خوفه ، وارتاح .

واستقر بمرفقيه على الارض ، وذقنه على كفيه . كانت التربة
باردة على ركبتيه وجلد ساقيه ، لكن صدره ظل دائما بحـــرارة
فطيرة الذرة . وعاوده عطشه . وود لو يشرب . وكان جائعـــا
أيضا . لكنه لم يكن يريد أن يأكل فطيرة الذرة . الآن ، ليس الآن.
ربما بعد مدة قصيرة ، بعدما يأتى « بوبو » . وعندئذ يأكلان معا
فطيرة الذرة .

كان المنظر من حفرته مشوبا بفروع الحشائش . كان يمكنـــه
أن يرى كل الطريق المؤدى الى طريق « بولارد » ، وحتى ما حوله
كانت الريح تهب ، وفى الشرق كانت أول مسة من الغبار ترتفــع.
وفى كل لحظة يطفو طائر عابر وبقعة من السواد السريع مطبوعة
على صفحة السماء . سعل « بج بوى » ، وحرك ثقله ، وقضـــم
حفنة من العشب وطن « زنبور » . وسمع الرقم تسعة ، بعيـــدا
وكئيبا .

وذكره القطار كيف حفروا هذه القمائن فى أيام الصيف الطويلة
الحارة كيف صنعوا الغلايات من قدور ضخمة دقيقـــة وملأوها
بالمـــاء ، ووضعوا الاغطية للبخار ، وثبتوها فى حفرات الصلصال
الرطب ، وأشعلوا النيران حولها . وتذكر كيف كانوا يرقصـــون
ويصيحون عنـــدما يطير غطاء فوق غلاية ، مفسحا الطريـــق
لدفعة كبيرة من البخار ومحدثا صفارة حادة . كانت لديهم فسحة
من الوقت عنـــدما كانوا يملكون جانب التل ، يحملقون ويدخنون.
نعم ، أنت ترى يا « بج بوى » كان « كازى جونس » مسرعا بها

الى خطوط « الباسفيك » الجنـوبية . كان « لبوبو » الرقـم اثنين فى « ساتناف » . وكان « بوك » فى « الالينوى » الرئيسى . وكان « لستر » فى « النيكل بليت » . فكيف يغلفون الخشب . سيتبخر المـاء المغلى من القدور ويجعلها تفقد فى الصلصال . وشيئا فشيئا ستسقط أوراق الاشجار الجافة فى القدور .وسيزداد ارتفـاع شعلات اللهب ، وسيكون عليهم أن يحموا عيونهم . ويتدفق العرق من وجوههم . ثم فجـأة ، سينطلق صمام خشبى عاليا فى الهواء ، ويدوى .

سطع « بج بوى » وفرد ذراعيـه ، مبعدا شـعلات اللهب ومبعثرا الدخان . لمـاذا لم يأت « بوبو » ؟ ونظـر عبر الحقول، لم يكن هنـاك شىء سوى ضوء الشمس الميت . وعاد ذهنـه ثانية الى القمائن . وتذكر اليـوم الذى كان فيه « بوك » يناقسه على نجاحه ، وحاول أن يفسد قمينته . نعم هذا الولد ابن الكلبة. لا ، يا الهى . لم يكن سيقول ذلك . ما الذى يفكر فيـه الآن ؟ يسب الميت . نعم ، فالمسكين « بوك » ميت الآن . « ولستر » أيضا . نعم ، كان صوابا أن يفسد « بوك » قمينته . أترى . وود لو لم يضرب « بوك » ضربا عنيفا فى هذا اليوم . كان آسـفا لـ « بوك » الآن وود لو لم يسب أم « بوك » المسكين ، كذلك كان هذا بغيضا . ربما خلقه الله لهذا ؟ لكنه لم يقصد أن يفعله. مسكين « بوك » مسكين « لستر » لم يعـاملا أبدا أى شخص بمثل هذه المعاملة ، ابدا ..

كان الظلام يتعمق ببطء . وفى مكان ما ، لم يستطع أن يحدده كانت جرادة ترسل أغنيـة متقطعة . وكان الهـواء يزداد نعومة وثقلا . ونظر عبر الحقول ، باحثا عن « بوبو » ..

وحرك جسمه ليلتقى برطوبة الارض المظلمة ، وعاد بفكره الى

حوادث اليوم . نعم ، عندما خرج لم يكن يريد ان يسبح . ولو اتبع عقله الواعى لم يكن ليذهب ابدا ليقع فى كل هذه المشاكل . فى البدء قال الآن . لكن الصـــدمات ذهبت بالباقى . نعم ، كان عليـــه أن يذهب هـــذا الصباح الى المدرسة كما قالت له امه . لكن ، يالجحيم ،من لا يتضايق من نفسه غصبا الى المدرسة هذا ما جعل « بج بوى » يبتعد عن المدرسة . لم تكن تحـــدث اى متاعب لو لم تكن مدرسة « جواديم » هذه . ويصبر ناقد ، اخرج العشـــب من فمه والقـــاه بعيدا مخربا مبنى المدرسة الحمراء الصغيرة ..

نعم ، لو ظلوا ساكنين وهادئين عنـــدما ظهرت هذه المـــراة البيضاء فربما ذهبت ، لكنك لا يمكنك ابدا أن تتكلم هنا وســـط البيض . ربما لم تذهب وربما قتلهم هذا الرجل الابيض . جميعا . جميعهم . نعم فلا يمكنك أن تتحدث هنا وسط البيض ، وعندئذ ، ربما ذهبت المراة البيضاء بعيدا وضحكت . نعم وربما يقـــول هذا الرجل الابيض : ايهـــا الزنوج الخـــونة اذهبـــوا الى الجحيـــم بعيدا عن هنا . انتم تعلمون ما سيفعله « جواديم » بكم هنا . وعندئذ سيمسكون اذيالهم ويجرون ..وابعد الرجل الابيض عن مخيلته . أين كان « بوبو » ؟ لمـــاذا لم يسرع ويحضر ؟

واختطف حفنة أخرى وقضمها . نعم ، ولو تركه ابوه يأخذ هذه البندقية . لاستطاع ان يوقفجماعة كاملة متعطشة للدماء ببندقية. ونظر الى الأرض كمن يقلب بندقية بين يديه . ثم صوبهـــا الى رجل أبيض يتقدم ، يا للجحيم .. والتوى الرجـــل متراجعا . وجـــاء آخـــر . فاستعاد حمله بسرعة ، وتركه يرى ما احضره الآخر . فالتوى هو الآخـــر متراجعا . ثم اتى شخص آخـــر . وأحضر نفس الدواء .. ثم تجمع الحشد الوحشى حوله ، فحدق بعيـــدا ، على قدر استطاعته . وضيقوا الحلقـــة عليـــه . لكن، يا رب ، لقد فعل ما عليـــه ، الم يفعل ؟ والصـــحف تقـــول :

زنجي يقتــل اثنى عشر من جماعة قبــل أن تقتص منـــه وعندئذ قد يقولون : الزنجي الهارب يغتــال عشرين قبــل أن يقتــل . وابتســم قليــلا . سيكون هــذا فى منتهى الســوء ، اليس كذلك ؟ وابعد الصــحف عن مخيلته ، ونظر عبر الحقــول . اين كان « بوبو » ؟ لمــاذا لم يسرع ويحضر ؟ وتحــرك . محــاولا أن يزيل المــاء من ساقيه . يا للسوء ، لقــد صار هــذا يتعبه وبسـاط الظــــلام الآن . نعــم ، كانت هنــاك نجمة صــغيرة تتلألأ بعيــدا ناحيــة الشرق . ربما لم يكن الرجل الابيض ميتا ؟ ربما لم يكونوا حتى يبحثون عنـــه ؟ ربما يمكنه الآن ان يعــود الى المنــزل ؟ الآن ، من الافضل ان ينتظر قليلا . سيكون هذا افضل. لكن يا الهى ، لو ينـــال فقط بعض المـــاء . انه يبتلع بصعوبة ، كان حلقـــه جـــافا للغـــاية . « جوادیم » وجماعات البيض . هذا كل ما يمتازون به ، فى مطـــاردة زنجي كالأرنب . نعـــم ، لقـــد حصروك فى ركن ، ثم سيدعونك تنــال العقــاب الفــا منهم ، وارتعــد ، لأن برودة الصلصال تثلج عظـــامه يا رب ، لنفرض انهم وجـــدوه هنـــا فى هذه الحفرة . وبدون اى شخص ينقذه ؟ .. لكن لا فائدة من التفكير فى ذلك ، انتظـــر حتى تأتى المتاعب ، فتواصل محاربتها . لكن اذا جاءت هـــذه الجماعة واحـــدا واحـــدا فسيقضى عليهم جميعا . نظف هذه الجماعة بأكملها . فأمسك واحـــدا من العنـــق . وضربه طويلا وبعنف ضربة حتى برز لســـانه وعينـــاه . ثم قفز على صدره وداسه كما داس تلك الحيـــة . وعنـــدما انتهى واحـــد جـــاء آخر . فلكمه ايضا . لكمة قوية حتى انزلق ببطء الى الأرض . راكما .. « هـــالو .. »

قبض « بج بوى » باصبعه على رقبـــة الرجل الابيض ونظـــر عبر الحقـــول فلم ير احـــدا . هل تجسس عليـــه احـــد ؟ كان

واثقا من أحــدا صاح . وخفــق قلبــه لكن يا للغرابة لا يمكن لأحد أن يراه هنــا فى هذه الحفرة . لكن ربمــا رأوه عنــدما كان آتيــا واختبأوا وهم الآن يضيقون الحلقــة عليــه . ربمــا كانوا يلوحون بالاشارات الى الآخرين ؟

نعم ، كانوا يزحفــون نحــوه . ربما كان عليــه أن ينهض

ويجــرى .. آه ربما كان ذلك بوبو . نعــم . بوبو . عليــه أن يتسلق لأعلى ويرى اذا ما كان « بوبو » يبحــث عنــه .. وتصلب .

— هالــو .

— هالــو .

— أين انت ؟

— هنا على طريق « بولارد » .

— تعال أظهر .

— حسـنا .

وسمع خطــوات اقــدام . ثم جاءت الاصوات ثانية . خافتة وبعيدة هذه المــرة .

— هل ترى أحــدا ؟

— لا . وانت ؟

— لا ..

— هل تعتقد انهم ذهبوا بعيدا ؟

— لا اظن . من الصعب قول ذلك .

تلاميذ « جواديم » الزنوج أولاد الكلاب .

— ستقتل كل أسود لقيط فى هذه البلدة .

— حسنا يا جيم أحضر اثنين منهم على أى حال .

— لكن « برثا » قالت انهم كانوا أربعة .

— فى أى جحيم اختبأوا ؟

قالت هى ان واحـــدا منهـــم كان يدعى « بج بوى » أو شىء ما مثل هذا . ذهبنا الى كوخه لنبحث عنه .

— نعـــم ؟

— لكنـــا لم نجـــده .

— هؤلاء الزنوج متكتلون فلا يمكن أن يبوحـــوا باى شىء عن بعضهم البعض .

لقـــد فحصنا الكوخ بابصارنا ولم نستطع العثور على شـــعرة واحـــدة منـــه . ثم دفعنا المرأة العجوز والرجـــل العجـــوز الى خارج الكوخ واشعلنا فيه النـــار .

— يا للحظ . تمنيت لو كنت هنـــاك .

— لكنت سمعت المرأة الزنجية العجوز تنتحب .

— هالـــو .

— تعالوا عابرين .

أمسك « بج بوى » بالحافة وحـــدق . فرأى رجـــلا ابيض

ببندقية تترنح على كتفه يجـــرى أسفل المنحدر ، هل هم ذاهبون ليبحثوا فى التل ؟ يا رب لم يكن امامـــه اى طريـــق ليذهب اليـــه بعيـــدا لقـــد قبض عليـــه . كان يعلم انهم سيمسكون به هنا . وليس معـــه شىء اى شىء ليحارب به . نعم . وبمجـــرد ما تقترب كلاب الصيد المتوحشة سيجدونه . يا رب . الرحمة . سيقتصون منه هنا على التل .. سيحضرونه ويربطونه الى عامود ويحرقونه حيا . يا رب لا أحد سوى الاله الطيب يستطيع انقـــاذه ، الآن لا أحـــد .

سمع مزيدا من الاقـــدام تجرى . وانزوى لأعمق . وتقوس صدره . لا أحـــد سوى الاله الطيب يمكنـــه انقـــاذه الآن . كانوا يتجمعون حوله جميعا وعندما يكونون جماعة كبيرة سينقضون عليه . وسينتهى كل شىء .. سينقذه الاله الطيب لانـــه لا احـــد يستطيع انقـــاذه الآن . لا أحـــد ..

ثم فقـــد الاحساس عنـــدما تذكر « بوبو » لنفترض أن بوبو جـــاء الآن ؟ .. سيمسكون به بالتـــأكيد . وسيقع كلاهما فى أيديهم . سيجعلون بوبو يبوح بمكانه . يجب على بوبو الا يحـــاول الحضور الآن . يجب أن يخبره أحـــد بذلك . لكن لم يكن هنـــاك أحـــد لم يكن هنـــاك اى سبيل .. وتعلق ببطء الى الفتحـــــة كان هنـــاك جمـــع كبير من الرجـــال وكثيرون آتون . وكثيرون معهم بنـــادق .. وبعضهم يحملون لفائف من الحبـــال معلقـــة على أكتافهم .

— قلت لكم أنهم مازالوا هنا فى مكان ما .

— لكننا بحثنا فى كل المـــكان .

— ماذا ، يا للجحيم ، اتودون أن تدعوه يذهب بعيدا عن هنا .

ــ الآن . الذين ذهبوا بعيدا عن هنا .. فلن تكون هنـــاك امرأة آمنـــة فى هذه البلدة ..

ــ قل . ما هذا الذى احضرته ؟

ــ هذا عمود ..

ــ لأى شيء ؟

ــ للجلد يا أغبيـــاء ..

ــ حسنا . سيكون هذا ساخنا اذا امكننا الامساك بهـــؤلاء الزنوج .

ــ قال اندرسون انه كان ذاهبا لاحضار برميل قار ..

ــ أحضرت بعض البنزين فى عربتى اذا احتجت اليه .

لم يعد لدى بج بوى اى احساس الآن .. كان منتظرا . ولم يفكر فيما اذا كانوا قادمين فى اثره .. انتظر فحسب . ولم يفـــكر فى بوبو وأراح خده على الصلصال البـــارد منتظرا .

نبح كلب . فتصلب . نبح مرة ثانية . فكور نفسه فى فجـــوة داخل قـــاع الحفرة منتظرا ثم سمع وقـــع أقـــدام كلب

ــ انظـــر .

ــ ما الذى أحضره ؟

ــ انهـــا حيـــة .

- نعم . وجـد الكلب حيـة .

ـ آه انهـا حيـة كبيرة .

ـ يا للحظ اتمنى لو استطاع ان يعثر على واحـد من الزنوج أولاد الكلب .

وغابت الأصوات الى غمغمة منخفضة . ثم سمع الرقم اثنى عشر . كان جرسه يرن ويصفر صائحا كلما انزلق طوال الخطوط الحديدية . وسوى نفسه بحذاء الصلصال .

كان احدهم يغنى :

ـ سنعلق كل زنجى فى شجرة تفاح ..

وعندما انتهت الأغنية كان هناك ضـحك عات . ومن الجانب الآخر للتل سمع الكلب ينبح بتجفز . فأنصت .كان هناك أكثر من كلب الآن . كان هناك كثيرون وكانت حناجرهم تدفع بالنبـاح الى خارجها .

ـ هس : انى اسمع الكلاب .

ـ عندما ينبحون هكذا فهذا يعني انهم وجدوا شيئا ما .

ـ انهم قادمون هنا عبر التل .

ـ امسكنا به امسكنا به .

وجاء زئير من هناك . لابد أنه بوبو . لابد أنه بوبو ..

وعلى الرغـم من خوفه . فقـد نظر بح بوى . كان الطريق ونصف جانب التل عبر الطريق ، مغمورين بالرجال . كان هناك قلائل على قمة التل . وسط السماء . كان يمكنه ان يرى الكتل القائمة تتحرك صاعدة المنحدرات . كانوا يصيحون .

— يا الله . امسكنا به .

— تعالـــوا .

— اين هو ؟

— انهم قادمون به فوق التل .

— أحضرت حبلا له .

— قل لأحدهم ان يذهب ويحضر الآخرين .

— أين هو ؟ الا نستطيع رؤيته يا مستر ؟

— يقولون ان برناس قادم أيضـــا .

— جاك . جاك . لا تتركنى أريد أن أراه .

— كانوا قادمين به عبر التل . العزيز .

— اريد أن أكون أول من يضع حبلا حول عنق هـــذا اللقيط الأســـود .

— هيا نعد النار .

— اشـــعل القار .

— أحضرت بعض السلاسل لنصفره .

— أحضروه من هذا الطريق .

— يا رب وددت لو معى شراب .

شاهد بج بوى الرجال يتحركون عبر التل . وبينهم كانت بقعة طويلة داكنة . لابد أنه بوبو . لابد انه بوبو . الذى يحملونه .. سيحضرونه الى هنا . يجب عليه أن ينهض ويجرى . وصر علـــى

أسنانه ومر بيده سريعا على جبهته . وانزلها مبللة . حاول أن يبتلع ريقه . لكنه لم يستطع . كان حلقه جافا .

لقد عاودوا الأغنية ثانية :

« سنعلق كل زنجى الى شجرة تفاح .. »

كانت هناك نساء تغنى . وجعلت أصواتهن الأغنية دائرة ومنغمة . ودارت موجات الأغنية فوق قمم الأشجار . وبدت السماء منخفضة ومثقلة بالسحب . والريح اخذت تنهض وصرخات الحشرات ترتفع بشكل مثير للدهشة خارقة أغنية الجمع . وذهب كلب الى أعلى قمة التل . وعند نهاية كل مقطع من الأغنية يطفو نباحه فى الليل .

تضاءل بج بوى عندما رأى الشعلة الأولى تضىء جانب التل . هل سيرونه هنا ؟ ثم تذكر : انك لا تستطيع أن ترى فى الظلام اذا كنت واقفا فى النور . وما أن ارتفعت الشعلات لأعلى حتى شاهد رجلين يدفعان برميلين الى أعلى المنحدر .

— قل . أعطونا يدا هنا ، الا تقول ؟

— حسنا سأفعل .

— تعال . رأسا لأعلى . أذهب الى الطرف الآخر .

— أحضرت الجلود هنا فى هذا العمود .

— أحضر مزيدا من الخشب .

كان بامكان بج بوى أن يرى البرميل محاطا بشعلات اللهب . ويسقطت الجماعة للخلف . مشكلة دائرة مظلمة . لقد وجدوه

هنا . أن لديه رغبة قوية ليتسلق خارج الحفرة ويطير عبر التلال لكن ساقيه لم تتحرك . فحدق بصعوبة محاولا العثور على بوبو ولمعت عيناه على بقعة طويلة داكنة قرب النار .. وزادت الريح شعلات النيران ارتفاعا . فقفز وتحركت هذه البقعة الداكنة . يا آلهى هذا بوبو . هذا بوبو ..

وشم رائحة القار ضعيفة فى بادىء الأمر ثم حملها الهواء عنيفة الى وجهه ثم طردها بعيدا . والتهبت عيناه فمسحها بمؤخرة أصابعه وتنهد !

هيا نستعيد الذكريات .

شاهد الجمع ملتفا فى دائرة حول النار . كانت وجوههم قاسية وحارة فى ضوء اللهب . وكان مزيد من الرجال والنساء قادمين عبر التل . وكانت البقعة الطويلة السوداء قد مسحت .

ــ كل شخص يرجع الى الخلف .

ــ انظر انه يخلع أصبعا .

ــ تعال . أبعد هذا عن النار .

ــ لقد خلع احدى اذنيه . هل ترى ؟

ــ ماذا حدث ؟

سقطت المرأة . مغمى عليها كما أظن ..

ملأت رائحة القار المتصاعدة جانب التل . كانت السماء سوداء والريح تهب بعنف .

ــ اسرع واحرق الزنجى لأنها تمطر .

شـــاهد بج بوى الجمع يســـقط متراجعا للخلف تاركا بقعة صغيرة من الرجال حول النار . ثم نظر — للمرة الأولى — نظرة كاملة لـــ « يوبو » . جسد أسود يتوهج فى الضوء كان بوبو يناضل . مقيدا . كانوا مقيدين ذراعيه وساقيه .

عندما شاهدهم يدحرجون البرميل تصلب . وندت عنه صرخة فعلم أن القار كان على بوبو . وتراجع الجمع للخلف . وشاهد جسدا مغمورا بالقار يتقلب ويدور .

لقد نالها اللقطاء .

كان هناك هدوء مفاجىء . ثم تضاءل بعنف عندما حملت الريح كعاصفة ثلجية دوامة واسعة من الجلود البيضاء وسط الليل . وارتفعت السنة اللهب طويلة كالأشجار . وجاءت الصرخة ثانية فارتعد بج بوى ونظر . كان الجمع يجرون اســـفل المنحدرات تاركين النار واضحة . ثم رأى كتلة من الدخان الأبيض مختلطا بشعلة صفراء وسمع الصرخات الواحدة فى أعقاب الأخرى وكل واحدة أقصر من الســـابقة . كان الجمـــع هادئا الآن . ووقفوا فى سكون ناظرين الى أعلى المنحـــدرات وكتلة الدخان الأبيض تصير سوداء بالتدريج تصير سوداء مختلطة بمولد شعلة صفراء.

— ضع مزيدا من البنزين .

— أمنحه قليلا من الحياة ... الم تمنحه ؟

كان رجلان يناضلان حاملين بينهما قدرا ثقيلا . ووضعاه أرضا ودحرجاه وتركاه بحيث يســـيل البنزين الى الأرض المنخفضـــة حول النار .

. انزلـــق بج بوى الى الخلف فى الحفرة . وجهـــه قد دفـــن فى الصلصال . ليس لديه أى مشاعر الآن . اى مخاوف ؟ كان متجمدا فارغا كأنما قد سحب منه كل دمه . ثم أرتعدت عضلاته عندما سمع حركة ضعيفة . وسال شريط رفيع من المـــاء البارد على ركبتيه جعله يندفع الى الخلف الى بقعة أجف . ونظر الى أعلى كان المطر يضرب فى القشب .

ــ انها تمطر .

ــ تعالوا . هيا نذهب الى البلدة .

ــ لا تقلقوا . فعندما تدخل النار فى أعماقه سيكون قد رحل.

ــ أنتظر . يا تشارلس لا تتركنى انها زلقة هنا ..

ــ سأحمل بعض سيداتك فى عربتى .

سمع بج بوى الكلاب تنبح مرة ثانية . وفى هذه المرة كان النباح أكثر التصـــاقا . وسمع بعض اقـــدام تجرى . تجرى مسرعة متلاحقة للأمام . وغمر المـــاء البارد قدميه . كان يمكنه ســـماع قطرات المـــاء فى سكونها المسرع . وهنا نبـــح كلب عند فوهة الحفرة . نبح بشدة شاعرا بوجود أحـــد بها . فكور نفسه . داخل بقعة والتصق بالقاع وركبتاه وذقنه مدفونة فى المـــاء ، أزداد أرتفاع النباح . وســـمع المخالب تحفر وشـــعر بالرائحة الســـاخنة لكلب يتنفس على وجهه . لمعت العيـــون الخضراء وصارت قريبة كالنباح . الذى انخفض بفعل الالتصاق بالحفرة. واخذ يدق طبول اذنيه فتراجع الى الخلف حتى ضغط كتفاه على الصلصال . وكتم انفاسه . واخرج يديه واصابعه المتصـــلبة . عوى الكلب بصـــوت اعلى . مقتربا بنباحه الذى تزداد حـــدته وارتفاعه . نهض بج بوى على ركبتيه ويداه امامه . ثم استوى

وظل ملتصقا بالقاع متنفسا أنفاسا مليئة بنفس الكلب الساخن، متنفسا بصعوبة . ولكن بسرعة . ازداد الكلب التصاقا .. مسببا أنفاسا أكثر خشونة . ولم يستطع بج بوى الرجوع الى الخلف أكثر من ذلك . كانت ركبتاه غارقتين منزلقتين فى المــاء وامسك بنفسه مستعدا . ثم . لم يعرف أبدا بالضبط كيف لم يعرف أبدا ما اذا كان هو قد اندفع أو الكلب هو الذى اندفع — صارا يتقلبان معا فى المــاء كانت العيون الخضراء تحته .. بين ساقيه . ضربت أظافر الكلب فى ذراعيه وانزلقت ركبتاه الى الخلف فأراحهما على الكلب . ووقع تنفس الكلب فى اضطراب سريع وبالفطرة حاول الامساك بحلق الكلب عندما أحس به يقبع بين ركبتيه .. عــوى الكلب طويلا فى صوت خافت كأنما يستجمع قوته . ودار بج بوى بيديه بنعومة على ظهر الكلب . باحثا عن الحلق فأحس بأظافر الكلب مرة ثانية ورأى عينيه الخضراوين . لكن أصابعه وجدت الحلق . كتم تنفسه شاعرا بأصابعه تغوص وكتم تنفسه ملقيا برأسه الى الخلف ومشددا ذراعيه . وشعر بجسم الكلب يثقل وبأظافره تحفر فى فخذيه . وبقوة منبعثة من الخوف .. اطبــق بأصابعه دافعا بكل ثقله على عنق الكلب . فثقل الكلب ثانية .. ورقد ساكنا .. وسمع بج بوى صوت تنفسه يملأ الحفرة وسمع صيحات ووقع أقدام قوته مبتعدة . ولمدة طويلة أمسك بالكلب .. أمسك به طويلا بعد موت آخر خطوة . طويلا اذ توقف المطر .

— ٥ —

طلع عليه الصباح وهو قابع على ركبتيه فى بركة من ماء المطر محدقا فى جسم الكلب المتصلب . وعندما تلون الهواء ابتدأ يفيق لنفسه ببطء وظل ساكنا لوقت طويل . كأنما يستيقظ من حلم . وكأنما يحاول أن يتذكر .

وجاء صوت العربة عبر التل . فحاول أن يتسلق ممر الفتحة.
كانت ركبتاه متصلبتين وقدماه تؤلمانه ألما أشبه بوخز آلاف
من الأبر كألم الرصاص ، وكان الألم يتصاعد من قاع قدميه الى
بطن ساقيه وهز الدوار المرئيات أمام عينيه فصعد لأعلى ونظر،
وفى الضوء اللامع رأى عربة « ويل » تقف على بعد خمس
وعشرين ياردة تقريبا . كانت الماكينة تدور . ووقف « ويل »
عند الطريق ناظرا عبر منحدرات التل ..

تقز بج بوى خارجا فسقط بضعف فوق العشب الرطب .
حاول أن ينادي ويل . لكن حلقه الجاف لم يخرج أى صوت .
فحاول مرة ثانية .

— ويـل .

سمع ويل مجيبا .

— بج بوى تعال .

وحاول أن يجرى فسقط فأسرع اليه « ويل » فى العشب
الطويل وأمسك بذراعه قائلا :

— تعـال .

ثم رفعه الى الطريق وقال :

— اسرع ..

دفع ويل بابا جانبيا مربعا معلقا فوق ظهر مقعد السائق
وجذب بج بوى الى الداخل .. مستقرا بتهالك فى القاع . ومن بين
ركبتيه وساقيه نظر حوله فى الظلام الذاهب .

— اين بوبو ؟

حملق بج بوى :

— أين بوبو ؟

— امسكوا به .

— متى ؟

— الليلة الماضية .

— الجماعة السفاكة .

اشار بج بوى فى اتجاه شجرة صغيرة على منحدر من التل المقابل . فنظر ويل . سقط الباب الجانبى . ودارت الماكينة وتحركت العجلات واندفعت العربة للأمام عبر الطريق الملوء بالوحل وطوحت ببج بوى على جانبه . وظل لحظة راقدا حيث سقط على جانبه . أضعف من أن يتحرك . وما ان شعر بالعربة تدور حول منحنى حتى أعتدل وأراح ظهره الى صف من الصناديق الخشبية .

ومن ثقبين طويلين سقطت أشعة رفيعة من ضوء النهار . كانت أرضية العربة من الصلب الأملس ، وباردة كعظامه . وأخذت الأشجار الصغيرة وذرات الغبار تتراقص بمرور العربة. وكلما دار حول منحن كان يجذب الى الأرضية . فأمسك بزوايا الصناديق ليثبت نفسه . وسمع مرة صياح الديكة . مما جعله يفكر فى البيت ، فى صوت ولديه . وفكر فى انه تذكر سماعه فى مكان ما عند احتراق البيت لكنه لم يتذكر اين سمع ذلك . فكل ذلك بدا غير حقيقى الآن .

كان متعبا . فغلبه النعاس ثم استلقى على الأرض . ثم قفز مستيقظا . كانت العربة تجرى مستوية على الأرض المرصوفة

ومن بعيد تدوى صـــفارتان قصيرتان من طاحونة ، لقد بكى ، وبلا وعى جرت الفكرة بذهنه : انها الساعة السادسة ..
فتح الباب الجانبى . وتكلم ويل من جانب فمه .

— كيف أصبحت ؟

— حسـنا .

— كيف أمسكو بـ « بوبو » ؟

— كان قادما عبر التل .

— ماذا فعلوا ؟

— أحرقوه ... ويل . أريد بعض المـاء فحلقى كالنار ..

— سنتناوله عندما نمر بمحطة بنزين نتزود منها .

فاستند بج بوى الى الخلف ونام . وقفز مستيقظا عندما توقفت العربة سمع ويل يخرج من العربة . وأراد أن ينظر من الباب لكنه كان خائفا . وفى لحظة واحدة عاوده الخوف الرهيب الذى عرفه فى الحفرة .

فلنفرض انهم بحثوا ووجدوه ؟ جذب باب العربة .

واطلت قبعة ويل مع اناء .

— خذ سريعا .

فأمسك به بج بوى ونثر المـاء على وجهه . فابتلت العربة وشرب . وجرت أصابع من البرد القارس فى معدته الساخنة . وأصابه آلم قاس جعله ينحنى . وبدت ضرباته منتهية الى حلقه محكمة . وبعد قليل هدأ الالم . وجلس متنفسا بهدوء مالت العربة

عن الطريق . وغمضت عيناه . وتحولت اشعة ضوء النهار الى ذهبية براقة . وارتفعت الشمس .

وأنطلقت العربة عبر أميال الطريق المرصوف بالاسفلت .. أنطلقت الى الشمال . تطوح به فى جوانبها ، واهتزت فطيرة الذرة فى صدره ، وتراقصت معه الشجيرات الصغيرة وذرات التراب فى اشعة الشمس الذهبية البراقة ..

ومال على جانبه ونام ..



عند ضفة النهر



— ١ —

كانت كل خطوة يخطوها تجعل المنزل القـــديم يميد كأنما كانت الأرض تحت اساس المنزل ، غارقة فى الوحل . وتعجـــب كيف استمرت الاعمدة التى تحمل المنـــزل صامدة امام المـــاء . لكن ما بعث فى نفسه القلـــق حقـــا هى درجات الســـلم . فانهـــا لابد ستنهار فى اية لحظة . وعندئذ ستنمحى . وقد انفـــق كـــل ذلك الصباح محاولا حمايتها بحبل معقودة ،لكنـــه لم تكن لديـــه عزيمـــة صادقة . فسار الى النافذة والملاءات تصف التالفـــة ممزقة . أملا أن يغـــادر الصداع الغبى رأسه ، حـــدث نفسه : كنت محموما طوال اليوم . أشعر . كأنما أصبت بزكام .

ومن نافذة زجاجيـــة قذرة شاهد ماء أصفر يتدفـــق حـــول ركن المخزن . وملأ اذنيـــه صفير حـــاد .. وفى الصـــباح كان المـــاء عميـــق البريق وبعد الظهر كان مشعا باصفرار . وعند المساء كان داكنـــا كسطح القـــار الراكد . كان عمقه ســـتة أقـــدام وظل يرتفـــع فارتفع قدمين هذا اليوم . واستقر عنـــد مرتفع ضئيل من الرغاء الأبيض حيث يضرب التيار الاصفر جانبا من المخزن ويرتد بعنف . منذ ثلاثة أيـــام وهـــو يراقب هـــذا المرتفـــع الضئيل من الرغاء الابيض . وعنـــدما قصر المـــد امل فى أن يرى الارض فى الحل . لكن عنـــدما طـــال عرف أن التيـــار كان يتدفق قويا للمرة الثانية . كانت كل بذور نبـــاتات الربيـــع رطبة الآن .لقد أصابها العفن . وفكر فى يأس . فى الصباح قبل أن يرى بقرته الوحيـــدة « سالي » تجـــأر وتهز راسها . وتدور بعينيها وتغـــوص فى عمـــق ثلاثة اقـــدام فى الميـــاه عابرة نحو التـــلال . وعندئذ كانت الاخت « جيف » قد قالت بأن الرجـــل الذى لا يتبع البقـــرة انما يكون غبيا . حسبنا انه لم يشر لهـــا

الى هـذا الطريـق .. كان هذا منزله . لكن عليـه الآن أن يغـادره . لأن المـاء كان يرتفـع وليست هنـاك أى اخبـار تشير الى متى وأين سيتوقف عن التدفـق ..

وبعد مضى يومين أخبر « بوب » بأن يقـود البقرة العجـوز الى مراعى « بويسـان » ويبيعها أو يستبدلها بقـارب ، أى نوع من القوارب . والآن عاد بوب لأنه اذا كان عليـه أن يقـوم بعمل ما فسيعمل عملا آخـر وعنـدما تمطر فالميـاه تنفذ لكن يا الهى لو لم يتحطم هذا الجسر .. فقط لو لم يتحطم هـذا الجسر القـديم ..

وتحول بعيـدا عن النافذة .. ماسحا جبهته ، ان جرعة جيدة من الكنين كفيلة بأن تقتل هذه الحمى ، لكنـه ليس لديه كنين . الرحمة . يا الهى !

والأسوأ من كل هذا ، هنـاك كانت لولو ملقـاة على ظهرها طوال هذه الايام الاربعة . تعانى مخـاضا يأبى أن يستسلم . انفرجت شفتاه فى حزن صامت . ولم يبد عادلا أن رجـلا واحدا قد يضرب بشدة وعلى جوانب عديدة فى آن واحـد . ووازن ثقل جسمه من قدمه اليمنى الى قدمه اليسرى ، منصتا للأصوات الآتية من الحجرة الامامية مفكرا كيف حـال لولو اذا لم تضـع هذا الطفل ، سأحملها فى الحال بعيدا عن هنا . الى أى مكان .

استند الى جـدار مظلم . ما الذى على وجه الأرض يستبقى بوب طويلا ؟ حسننا — والشىء بالشىء يذكـر — هـذا مرده لحماقته . كانت أمامه فرصة ليفر بعيـدا لكنـه تصرف كأى غبى ولم يستغل هذه الفرصة . فقـد أشار بأن المـاء سيتدفـق هابطا فى الحـال . وقـد فكر بأنه لو بقى لكان الأول فى العودة

الى الحقول وعاش حياة الربيع . لكن الآن حتى لو ذهبت البقرة . نعم . لكان قد رحل عندما تمنحه الحكومة القارب . وهو الآن ليس معه اى نقود لشراء قارب . وقال « بوب » أنه لا يستطيع حتى أن يقترب من الصليب الأحمر .

فالتقط وعاء من جوار الجدار والتقط ماء موحلا من دلو . كان طعمه ثقيلا وأسوأ من ان يستطيع تجرعه . فأعاد تعليق الوعاء وطوح بالماء فى الركن . وأراح رأسه منصتا وبدا كأنه سمع صوت طلقة رصاص . ثم حدثت مره ثانية . ففكر بأنه لابد حدث شيء ما فى البلدة وعبر الماء الاصفر سمع طلقة أخرى . رفيعة حادة آتية من بعيد . لابد أن هناك شغبا . لابد أن هناك عراكا فى مكان ما . لقد سمع بأن جماعات البيض كانت تهدد بأن يعاقبوا جميع الزنوج الذين يضعون أيديهم على الرمال أو الحاجيات فى المخازن . وكانوا يتحدثون عن احضار الجنود أيضا . كانوا خائفين من أن تنهب المنازل والمخازن . نعم كان صعبا حتى أن تقول ما يحدث فى البلدة . وفى مثل هذه الاوقات سيطلقون الرصاص على زنجى فيقتالونه ويسقط على الأرض كالكلب . ولا يشعرون بشيء من أجله . هذا الاغتيال لابد أن يعنى اى شيء .. لكن لم يرحل اى كائن من الزنوج المساكين الى الأبد ..

فواجه النافذة مرة ثانية . مفكرا يجب أن أحضر مسدسا من درج مائدة الزينة عندما ادخل حجرة لولو وجذب الستارة الممزقة لأعلى الى أبعد مدى يمكنها الارتفاع اليه فانساب ضوء براق داخل المطبخ . ونظر الى الخارج كان منزله على ارتفاع حوالى اثنى عشر قدما فوق الماء . وكان الماء فى كل مكان ، الماء الاصفر . الماء المتدفق الماء القذر . ولاربعة ايام

وليال طويلة كان هناك يتدفق باندفاع . وفى لحظة كان لديه الاعتقاد بأن هذا الماء كان دائما هناك . وسيظل دائما هناك . نعم فقد بدا أن الماء كان دائما هناك وانه لأول مرة يلاحظ ذلك ، ربما اسقط أحدهم هذه المنازل والاشجار وسط هذا الماء !! وشعر بالضيق ومرت به رعشة عصبية فمسح عينيه . يا رب . لقد أصابتنى الحمى . تصدع رأسه وشعر وود لو ينام ويستريح . كان المنظر المقابل لنافذته واضحا على بعد نصف ميل فمعظم المنازل قد مسحت تماما . ومن قريب وقفت اشجار قليلة ملقية ظلالا سوداء على الماء الاصفر . كانت السماء رمادية بنذير المطر . وفجأة ارتعدت كل عضلة فى جسمه كهزة خافتة من الرعد ارتفعت واختفت بعيدا . فهز رأسه . ليس هنا شيء أسوأ من المطر الآن . وسيحمل المطر الغزير الكشك العالى بعيدا كالقوقعة .

— يا أخ مان .

واستدار ورأى الاخت جيف جالسة فى بوابة الصالة .

فسألها :

— كيف حال لولو ؟

فهزت المرأة العجوز رأسها قائلة :

— انها متعبة .

— هل ترجحين انها ستضع فى الحال ؟

— لا نستطيع القول بذلك يا أخ مان . فربما استطاعت وربما لم تستطع . ان لديها متسعا من الوقت للمخاض .

— الا نستطيع أن نفعل شيئا من اجلها ؟

— الان . علينا أن ننتظر فحسب . هذا كـــل ما فى الأمر . يا الهى اننى أعرف انهـــا لن تنـــال هذا الطفـــل بدون طبيب . ففخذاها صغيرتان جـــدا .

— ليس هناك اى طريـــق لاحضار طبيب الآن .

— لكن عليك أن تفعل شيئا يا اخ مان .

— لا أعرف ماذا افعـــل .

وسعل مكملا :

— اين بيـــوى ؟

— انه نائم فى حجرة لولو .

فاقتربت منـــه حتى صارت لصقه ونظـــرت بحدة فى وجهه .

— يا أخ مان لا يوجـــد اى شىء يؤكـــل فى المنـــزل . عليك أن تعمل شيئا .

فتحول عنهـــا الى النافذة . وقـــال :

— لقد أرسلت بوب مع البقرة ليحـــاول احضار أى قارب .

سعلت . فابتلع لعـــابه بمشقة . سامعا همس خطـــوات حذائها الناعمة . بينما هى تبتعد فى الصـــالة . لا قوارب ولا نقود . ولا طبيب ولم يحضر بوب حتى الآن . لن تستطيع لولو الانتظار اكثـــر من ذلك . لو أتى بوب بقـــارب لوضع لولو فيه وجـــدف بهـــا الى مستشفى الصليب الأحمر ، فتنتهى المتاعب

سيدخلها البيض المستشفى . سيكون عليهم ان يدخلوها . فلن يتركوا امرأة تموت لأنها كانت سوداء لن يدعوا طفلا يقتل امرأة . لن يفعلوا وصار مثلهفا . ينظر خارج النافذة منصتا . واعتقد انه سمع طلقة اخرى . لكن الصوت الوحيد كان صوت الماء المتدفق كان الماء يسود . وفى الفجوات المفتوحة كان الماء اصفر موحلا . لكن بالقرب من المنازل والاشجار كان لونه هو اللون الداكن . وفكر بأن الليل قد هبط ثم جاء صوت الطلقات رفيعا حادا بعيدا . واحد .. اثنين .. ثلاثة ..

ــ يا أخ مان . انه بوب .

فأسرع الى الباب الأمامى يجرى بثقل على عجلات حذائه الضخم فرأى بوب واقفا بعيدا اسفل الدرجات الطويلة بالقرب من الماء منحنيا ممسكا بحبل وبجانبه قارب تجديف أبيض يرتجف فى التيار .

ــ كيف عدت يا بوب ؟

فنظر بوب لأعلى واضاءت وجهه ابتسامة . وقال مشيرا الى القارب الابيض :

ــ انظر ؟

فاهتز كل جسد مان . شكرا يا الهى . لقد احضرنا قاربا . والآن نستطيع أن نحملها بعيدا ..

ــ من اين احضرته ؟

فلم يجب بوب . واحكم ربط الحبل وارتقى الدرجات .

قال بوب :

ان روحى متعبـــة .

وسارا فى الصالة . فراقب مان بوب وهـــو يخـــرج منـــديلا من جيبه ويمسح وجهه الأسود . دخـــل بيوى وهو يمسح عينيه وينظر الى بوب .

ـــ هل أحضرت قاربا . يا عم بوب ؟

قـــال مان :

ـــ ابق هادئا يا بيوى .

وجاءت الاختان جيف وجرينى ووقفتا بجوار بيوى وقلبتا النظر بين بوب ومان وانتزع بوب منديله وقد تحين الفرصة وضـــحك قليـــلا وقال مرة ثانية :

يا الهى ان روحى متعبة !

فسأل مان :

ـــ من اشترى البقرة ؟

ـــ اشتراها العجوز بويمان لكنه لم يرد أن ينقدنى كثيرا .

وتوقف بوب مفكرا وانتزع حفنـــة أوراق مالية من فئة الدولار قـــائلا :

ـــ لقد أعطانى خمسين دولارا .

ـــ هل هذا كل ما أعطاك ؟

ـــ كل مليم سيساعدنى يا الهى . وهذا الابيض القاسى لا يريد أن يعطينى يا الهى لقـــد ربح هذا البويمان اضعافا من صـــفقة

البقرة . انى أقسم لك يا الهى بأننى لم ارغب ابـــدا فى أن أسرق أى انسان طوال حياتى ..

قالت جرينى :

ــ الا تفكر فى شىء يا بوب . لقـــد عانينا المزيد من المتـــاعب الآن دون أن تفكر أنت فى شىء .

فنظر بوب اليها .

وصاح بيوى وهو يجرى من الباب الأمامى :

ــ انه قـــارب .

وظل مان واقفـــا ممسكا بالنقود بأصابعه وسأل :

ــ لكن كيف أحضرت هذا القارب يا بوب ؟

فسأل بيوى :

ــ هل هذا قاربنا ؟

قالت جرينى :

ــ اسكت يا بيوى .

وقـــال بوب :

ــ لا تقلق . ستنال الفرصة وتركب فى هذا القارب يا بيوى .

وضحك وأمسك بـــ « بيوى » من ذراعيه ونظر حـــوله . وسقط جالسا على كرسى وقال :

ــ عندما أغادر أرض بويمان فسأذهب الى البلدة فى قارب يدار بالكهرباء مع الأخ هـــول . لقـــد ذهبت فى كـــل مكان باحثـــا

لأعلى ولأسفل عن قارب . فالبعض يريد أربعين دولارا وآخرون يريدون خمســـين . وقابلت رجلا طلب مائة . ولا أستطيع أن اشترى قاربا الآن هنا ، اذا سأتحين الفرصة وأسرق قاربا عندما يكون الجميع غافلين !

سأل مان

ــ هل سرقت القـــارب ؟

ــ لم نكن لنرى أمامنا قاربا اذا لم احصل عليه .

قالت جرينى :

ــ يا ابنى انك غبى حتى تسرق قـــوارب البيض فى أوقـــات كهـــذه .

فمسح بوب ساقه وضحك قائلا :

ــ وهو كـــذلك يا ماما . سأعيد القـــارب الى أصـــحابه . رأيك فى ذلك أتريديننى أن أعيده ؟

فاستدارت جرينى بعيدا وقالت :

ــ لن أركب فيـــه .

قـــال بوب :

ــ حسنا ابقى هنا واغرقى فى المياه .

وسعل مان قـــائلا :

ــ بوب كم وددت لو لم تسرقه .

فقـــال بوب بحركة يائسة من يده :

ـــ أوه عم تبحثون ؟ أتخافون لن يراكـــم احـــد فى داخله . ستذهبون جميعا الى التــلال . واذا لم اسرق هـــذا القــارب لكان عليـــكم البقـــاء هنا حتى يحملكم المـــاء ويزيلكم ..

ودفع بيوى فى ركبته ونظر لأعلى وعليه سيماء الخطورة .

وقـــال :

ـــ كيف حــال لولو ؟

قالت الاخت جيف :

ـــ انهـــا متعبـــة .

وجاءت جرينى من بعيد قائلة :

ـــ ما الذى تنوى أن تفعله يا مان ؟ هل تأخـــذ لولو فى القارب الذى سرقه بوب ؟ أنت تعرف أن البيض سيبحثون عن هـــذا القـــارب . لقـــد قتـــل ابن الأخت جيمس فى طوفان كهذا ..

قـــال مان :

ـــ انها لا تستطيع البقـــاء هنا بحالتها هذه .

وسـأل بيـــوى :

ـــ هل سأذهب معـــكم يا والدى ؟

فقالت جرينى :

ـــ اسكت يا غبى والا ضربتـــك ؟

وسألت الاخت جيف :

ـ ما الذى تنوى أن تفعله يا أخ مان ؟

فتردد مان . ثم قـــال :

ـ سألفها واحملها . سأجدف بهـــا الى مستشفى الصليب الأحمر ..

فوقف بوب قائلا :

ـ مستشفى الصليب الأحمر ؟ أعتقد انك قلت بأننا سنذهب الى التـــلال ؟

ـ سنذهب بـــ « لولو » الى طبيب .

ـ هل تعنى بأنك ستحملها فى القارب الذى سرقته ؟

ـ ليس هناك شىء آخر نفعله .

فهز بوب رأسه قائلا :

ـ مان . انى واثق بأنك ستقع فى متاعب اذا قدت هذا القارب داخل البلدة . فقـــد سرقت هذا القـــارب من مكتب البريـــد انه ملك العجوز هيرت فيلد . وانت تعـــلم كم يكـــره الزنوج . وكل شخص سيعرف قاربه عندما يراه . انه أبيض ولا تستطيع أن تبتعد به عن هنا . واســـتمع الى ، انه يوجـــد الآن عراك فى البلدة أيضا . هذه الجسور لا تزال طافية فى الشـــمال وهم يستعدون فى أى دقيقـــة للرحيل وهم يضـــعون كل زنجى فى المداخن . انهم يدفعونهم كالعبيد وسمعت أنهم قتلوا اثنين اوثلاثة عندما حاولوا الفرار ، واذا حـــدث أى شىء لك فلن نستطيع العودة الى هنـــا لأن قنطرتين ازيلتـــا هذا الصـــباح ولم تعـــد هناك قطارات تسير . ان الأمور سيئة للغاية فى البلدة . فالحمى

تغمر البيض.والجميع يتدفقون على مستشفى الصليب الاحمر . وايما وجهت نظرى لم أر الا الرجال البيض يحملون بنادقهم على أكتافهم ، كانوا ينتظرون الجنود عندما تركتهم . وانت تعلم ماذا يعنى ذلك !!

وماث صوب بوب بعيدا وجاء الى سمعهم صوت لولو تئن فى الحجرة الامامية .

سألت الأخت جيف :

ـ هل ستذهب وتأخذها معك يا أخ مان ؟

فقال مان :

ـ ليس هناك اى شىء غير ذلك لنفعله . سأحاول ان اعيد القارب الى البيض بعد ما أحمل لولو الى المستشفى . لكنى كنت أتمنى لو لم تسرق هذا القارب يا بوب الا اننا سنستعمله الآن . فلا أحب أن اصطدم بالبيض ...

وقالت جرينى :

ـ لن أذهب فى هذا القارب . لن أذهب خارجا عن هنا لألقى حتفى اليوم .

فقال مان :

ـ أبقى هنا أذن . فسآخذ لولو الى المستشفى .

فصاحت جرينى وذهبت الى الحجرة الامامية فتبعتها الاخت جيف .

وسأل بيوى :

ـــ أبى هل سأذهب معكم ؟

ـــ نعم . احضر ملابسك . وقل لجرينى ان تعد ملابسها اذا لم تكن تريد البقاء هنا لأنى مستعد للرحيل .

كان بوب متعبا فمط شفتيه ونظر الى الأرض قائلا :

ـــ لقد وقعت فى عمل صعب بتجديفك بالقارب من هنا الى المستشفى . ستجدف ضد التيار فى كل بوصة تخطوها وبقارب مزدحم . عمل لا يناسب الا الشيطان والمياه صارت بعمق اثنى عشر قدما ومازالت تتدفق بقوة وبخداع .

فسعل مان قائلا :

ـــ ليس امامنا شىء آخر لنفعله .

ـــ من الأفضل ان تأخذ شيئا معك . لأن كل شخص يلعب فى البلدة .

فقال مان :

ـــ يجب أن احمل بندقيتى سأظل فى أسف لانك سرقت قارب البيض ..

وطفى صوت عبر الماء كصدى آت من بعيد .

ـــ يا أخ مان . هل انت هناك . يا أخ مان .

فقال بوب :

ـــ هذا الدرمورى .

فتح مان الباب . كانت كتلة سوداء واقفة خارجه . كان رجل طويل واقفا فى قارب تجديف ويده ممسكة بحبل على الدرجات .

ــ أهذا أنت يا أخ مان ؟

ــ كيف حالك يا الدر ؟

ــ هل أنتم جميعا بخير ؟

ــ نحن على وشك الرحيل . الا تريد أن تصعد ؟

ــ لدقيقة واحـــدة .

صعد مورى الدرجات ووقف فى البوابة ماسحا يديه .

ــ كيف حال الأخت لولو ؟

ــ نعتزم حملها الى الصليب الاحمر .

ــ هل تعنى بأنها لم تنجب هذا الطفل بعد ؟

ــ انها أضعف من أن تلده بدون طبيب يا الدر .

الرحمة يا الهى . هل يمكننى رؤيتها ؟

فأفسح له مان الطريـــق وقاده الى حجـــرة لولو حيث كانت (لمبة) تدخن ملقيـــة ظلالا قاتمة على الجـــدران . ووقف بوب وبيوى والأخت جيف وجرينى ومورى ومان حول السرير . كانت لولو راقدة عند طرف ملاءة السرير متدثرة فى بطانية ثقيلة . كان شعرها مهوشا ووجهها مبللا وتنفسها سريعا .

سأل مورى :

ــ كيف تشعرين يا أخت لولو ؟

فنظرت اليه لولو بضـــعف . كانت امرأة صـــغيرة ذات عينين واسعتين براقتين . كانت ذراعاها مثبتتين فى جانبها ويداهـــا أمسكتا بالبطانية .

سأل موري ثانية :

ــ كيف تشعرين ؟

قالت جريني :

ــ انهــا ضعيفة كليـــة .

فتحول موري الى مان قائلا :

ــ استمع الي جيــدا ، من الافضــل أن تكون حريصا وتأخذ هذا القــارب الى البــلدة . فالبيض يثيرون المعــارك وهذه التيــارات قوية .

فتحول مان من السرير الى الدولاب واخرج مسدسه من آخر الدرج ودفعــه منزلقــا فى جيبــه .

فسأله بيــوى :

ــ والدى ملا هذا ؟

فقــال مان :

ــ اسكت .

قال موري :

ــ يا اخواني ويا أخواتي هيا نركع ونصلي .

فركعوا جميعا على ركبهم واتت لولو وومض شريط أزرق من الضوء أضاء الحجرة ثم جــاء رعد قوى بدا كأنما يهز الارض فلم يتكلم أحــد حتى انتهت آخر هزة .

ــ « يا الهي يا رب يا خالق الاقــدار لقــد عدنا أمامك مرة ثانية . ضعفاء كما ترى طالبين العفو والرحمة استــتمع الينــا

اليوم يا الهى استمع الينا اليوم ، اذا لم تكن قد سمعتنا من قبل . اننا فى حاجة اليك الآن لتساعدنا وترشدنا وتنقذ هذه الجماعات المسكينة يا الهى أرع الذين خلقتهم وسويتهم على صورتك . افتح قلوبهم وساعدهم فى ان يؤمنوا بكلمتك . وساعد هذه المرأة المسكينة يا الهى . سهل عملها . لانك قلت يا الهى ان عليها أن تنجب أطفالها فى الم .. » .

أغمض مان عينيه وأراح يديه على فخذيه وعاد الصداع البطىء الغبى الى راسه وود من كل قلبه لو يسرع الدرموري وينهى الصلاة ، لأنه يريد أن يكون فى ذلك القارب انه لن يشعر بأمان طالما هو جالس فى هذا القارب . كان بوب مخطئا جدا عندما سرقه . لكن لم يعد هناك حل الآن . فالسرعة تكمن فى هذا القارب . كما أعتقد وأخذ يردد :

اذا حضر البيض الى هنا واستعادوه لعدنا كما كنا من قبل . نعم يجب أن أعيد هذا القارب الى البيض بعد ما أحمل فيه لولو الى المستشفى آه نعم فربما آخذ الدر قاربى واتخذ طريقه الى التلال ؟ يا الهى نعم .. سيكون طريقا طيبا للهرب من البيض سأساله ..

واستطرد يقول ... يا الهى ، لقد قلت نادنى بأسمى وستجيب لقد قلت أبحث تجد . واليوم اننا نناديك ونبحث عنك . يا الهى لقد قلت أعتقد فى دم أبنك ونحن الآن نعتقد وننتظرك لتنقذنا . وهذه القلوب الغليظة التى تكمن فى أجساد البيض هناك فى البلدة . اجعل قلوبهم رقيقة لأنك قلت يا الهى فقط نظفوا قلوبكم لكى تأتيكم الرحمة ...

مسح مان عينيه وازال ما علق بحنجرته والآن انه يفكر بأنه لا فائدة من أن يأخذ الدر قاربى . فسيود معرفة كيف جاء وسيكون

على أن أخبره بأن بوب قد سرقه ولن يقدم الدر على مســاعدة أى شــخص يعتقد انه خالف الصــواب . لكن ربما اذا اخبرت العجوز هيرت فيلد عن السر فى سرقة بوب لقاربه ربما لم يأخذنى معه ؟ نعم يجب أن يكون مسرورا لأنى سأعيد له قاربه . نعم . وربما أستطاع الدر أن يأخذ معه الأخت جيف وبوب الى التــلال فى قاربه ؟ فهذا قد يساعد قليلا ..

« .... وأنقذ أرواحنا من أجل المبشرين . كل الرجال » .

وقف مورى وأخذ يغنى وردد الآخرون فى رقة .

« انى ذاهب لأضع سيفى ودرعى »

« هنــاك عند ضــفة النهر »

« هنــاك عند ضــفة النهر »

« هنــاك عند ضــفة النهر »

« انى ذاهب لأضع سيفى ودرعى »

« هنــاك عند ضــفة النهر »

« انى ذاهب ولم أفكر فى الحرب بعد اليوم »

« انى ذاهب ولن افكر فى الحرب بعد اليوم »

« انى ذاهب ولن افكر فى الحرب بعد اليوم »

« انى ذاهب ولن افكر فى الحرب بعد اليوم »

« انى ذاهب ولن أفكر فى الحرب بعد اليوم »

« انى ذاهب ولن افكر فى الحرب بعد اليوم »

مسح مورى فمه بظهر يده وحرك قبعته قائلا :

ـــ حسنا يا اخواتى واخوانى . انى ذاهب الى التــلال .

فان أهلى هناك على استعداد . لقد حملت القارب فى الخـــارج لكن هناك حجرة لاثنين أو ثلاثة أو أكثر اذا أرادها أى شـخص .

فسأله مان :

ـــ هل تستطيع أن تأخذ معك الأخت جيف وبوب ؟

ـــ بالتأكيـــد .

كانت جريني تصيح وارتدت معطفها ودلفت الى الصـــالة . وجاء بوب من المطبخ بربطة . وحمل مان لولو بين ذراعيه وامسك مورى الباب له . وتبعهم بيوى ممسكا بدب صغير . واستعدت الأخت جيف . وتوقفوا جميعا عند البوابة الأمامية .

قال مان :

ـــ بوب من الأفضل أن تهبط وتعد هذا القارب .

وقال بيوى :

ـــ دعه يذهب معك .

وقالت جريني ممسكة بذراعه :

ـــ تعال أنت هنا .

جذب بوب القارب لصق الدرجات وهبط مان الدرجات ببطء .

قال مورى صائحا :

ـــ لا تعقدها يا أخ مان .

خطا مان فى القارب وأراح لولو فى المقعد الخلفى . وامسكها بوب من كتفيهـــا .

ونادى مان جريني وبيوى .

ــ تعالوا جميعا .

فجاءوا يتقدمون بحذر . وعاونهم مورى على الهبوط .

وقـــال :

ــ سأراكم جميعا عند التلال .

وجلس بوب والأخت جيف فى قارب مورى . كان مورى أول من يدفع القارب .

ــ أنا ذاهب يا جماعة . وداعا وبارككم الله .

ــ وداعـــا .

أمســك مان بالمجداغين وبلل قبضتيهما ليمنعهما من الانزلاق وغمسهما فى المـــاء وجذبهما واندفع القارب متقدما عبر الفيضان المظلم .

ــ ٢ ــ

كانت الميــاه تتدفق من كل جانب حول مان . عفنـــة ومغرقة سوداء كمحيط من الزيت المغلى . وفوق رأسه كانت الســـماء مخططة بضوء رمادى باهت . كان الهواء ساخنا يهب فى ضربات متتالية . وكان كل شىء حوله محاطا بجدران من الظلام وكان يعلم أن هذه المنازل والأشـــجار مختبئة خلف هذه الجدران ويعلـــم أن عليه أن يلتزم الحذر . وما أن جدف حتى ابتدأ يشـــعر بقوة التيار تضرب فى يساره . ومع كل ضربة من المجدافين كان يزن القارب من خلفه . ومن رقبته . ومن كتفيه وغمره الخوف قبـــل أى شىء ، يا الهى . لو لم يتحطم هذا الجسر واهتزت شـــجرة كالشبح وهمست أوراقها ، وتذكر انها تقف عند رأس الطريق . وتحرك عقله بصورة الشجرة وتخيل صورة لحقل ذرة فى ضوء

الشمس . كان عليـــه ان يتحول هنا فى زواية حادة ويتجه الى الطريق الحديدى وأراح مجدافا واستدار بفعل تجديفه بالآخر . ضرب القارب التيار بعنف وعمق . فمال بالمجدافين مجدفا بقوة شاعرا بأن عليه الآن أن يحارب . وان يحتفظ بالقارب متحركا ، فى طريق مستقيم اذا أراد أن يسير فى خط واحد . وان ضربـــات المجدافين ستتوالى فى انتظام . وأنحنى رافعا المجدافين واستند الى الخلف غائصـــا بهما ثم جذبهما بأصابعه المحكمة شـــاعرا باندفاع القـــارب على سطح المـــاء فى الظلام . يا الهى . لو لم يتحطم هذا الجسر القديم .

وابتدأ يبحث عن طاحونة بذر القطن التى تقع على يســـار الطريق الحديدى فحدق محاولا رؤية المداخن السوداء . كانت دائما هنا فى مكان ما . ربما لم أمر بها ؟ وأستدار الى اليمين . منحنيا لأسفل . وناظرا . ثم أستدار وأغمض عينيه . وأوقف القارب وسكت المجدافان . وشعر بتعب مفاجىء يغمره .

همست جرينى :

— بيوى . أبق ساكنا .

أنت لولو . فشعر مان بألم عميق . وبسرعة أستعاد فى عقله المكان الذى ظن انه جـــاءه . وبحث عما قد يكون على الأرض وعن العلامات التى تميز المـــاء . ونظر مرة ثانية الى اليمـــين والى اليسار وخلف كتفه . ثم نظر لأعلى مباشرة فبدت مدخنتان طويلتان على بعد قدم من عينيه . ففكر قائلا :

لم أكن أنظر لأعلى بدرجة كافية . فعلى اليسار لابد ان توجد المنازل . وعلى أستقامته يوجد طريق بيك فسيكون هذا أقصر طريق .

سأل بيوى :

ـــ والدى هل وصلنا هناك ؟

ـــ أسكت .

وجدف من المداخن ، جدف حتى المنازل المتخيلة فى ذهنه . متوقعا أن يرى شيئا خارجا من الظلام يماثل تصـــورا داخليا . ومع كل ست أو سبع ضربات كان يتلفت حوله لينظر . وصـــار التيار عنيفا والظلام كثيفا . وتخيل للحظة ان القارب لا يسير . فثبت كعبيـــه وانحنى لآخر ما يمكنه ودفع المجدافين حتى آخـــر ما تصـــل اليه ذراعاه من قوة . وصار ظهره يؤلمه . وانفجرت أصابعه فاستراح . لحظة وغمسها فى المـــاء البارد الأسود . فساعده هذا فى تخفيف الالم . لكن لم يكن هنـــاك سوى الظلام فوقه حينما تلفت لينظر الى المنازل على طريق بيك وبحث فى ماذا كان سار وأخطأ الطريق الذى يقع على جانب الطاحونة وقـــال فى نفسه :

ـــ ربما كنت سائرا فى طريق خاطىء !!

لم يستطع أن يتفوه بذلك . ومع كل ياردة يتقدمها كان التيار يزداد عنفا وفكر فى الجسر . وفجأة مال القـــارب ودار . فكتم تنفسه وحرك المجدافين فاقدا كل اتجاه . هل تحطم هذا الجسر؟ وسمع جريفى تصيح :

ـــ مان .. تكوم القارب .

وطالعت رأسه النجوم المتراقصة فى الظلام : واصطدم القارب بشىء وتعلق بالمجدافـــين فضاع احـــدهما لكن الآخر كان ثابتا لا يتحرك . وكان القارب لا يزال سالمـــا فقد كان داخلا فى فجوة

داخل جدار لا يستطيع أن يراه . فأسقط المجدافين ورفع يديه لأعلى في الظلام . الخشب . الخشب الرفيع هل هذه منازلهم ؟ وشعر بأنه كان يقود القارب وهو يرجع القهقري وقبض بأصابعه ليمتنع عن الدخول الحـــاد فى قطع الخشب . ثم أمسك شـــيئا مستديرا باردا أملس رطبا ... كان هـــذا خشبا . فتعلق به باحكام وأوقف القارب . وكان يستطيع أن يشعر بقوة التيـــار ورعدته تجـــرى فى جسمه كما يطلق قلبه دقـــات رتيبة ناعمة . وتنفس بصعوبة محاولا أن يكون فى نفسه شـــيئا محبوبا حول البرد والبلل . وقطع الخشب الملساء وومض فى عقله عديد من الصور لكن واحدة منها لم توافقه . وتطلع لأعلى مفكرا بأصابعه. ثم رأى فجأة الشـــارع بأكمله ، الشمس اللامعة ، العربـــات والأثاث كلها معلقة فى وابور ماء ، هذا هو العجوز تومس سنو وكانت هـــذه الأمطار تجرى حوله . كان طريق بيك حول المنزل امامه . وفـــكر لحظة قبل أن يلتقط المجاديف باحثا عما اذا كان قد أسقطها فى هذا التيار الجارف وسألت جريتى .

— ماذا حدث يا مان ؟

فقـــال :

— كل شيء على ما يرام .

أراد أن يهـــدئهم . لكنه لم يعرف ماذا يقـــول . فبدلا من أن يمسك بالمجدافين ويضع أحدهما فى حائط غير مرئى أطلق لنفســه العنان وترك جســـده وأحدث دفعة أرسلت القارب فى منتصف التيار . وصحح وضـــعه محاولا أن يبتعد عن المنازل باحثا عن الشـــارع وركز عينيه حتى كلتا . لكن كل ما أستطاع أن يراه كانت جدرا مظلمة تهدد من الجانب الآخر . حقا كان هذا كافيا ليراها واضحة . وجدف مانحا كل قوته للمجداف الأيمن ثم للأيسر محاولا أن يظل فى المنتصف .

— أنظر يا أبت .

— ماذا ؟

قالت جريني :

— أسكت يا بيوى .

— هناك أضواء . أنظر ؟

— أين ؟

— أنظر ؟ الى اليمين هناك لأعلى .

نظر مان وذقنه فوق كتفه . كانت تعترضه دائرتان من الضوء الأصفر القاتم . وتحير مان لحظة . فسحب المجدافين وأوقف القارب . وبدت هذه الأضواء عالية جدا لم يستطع أن يتابعها . لكنها كانت على طريق بيك وبدت على بعد مائة ياردة تقريبا . تصور كيف يكون ذلك ؟ ربما وجد بعض المساعدة هناك . فجدف مرة ثانية وظهره للأضواء لكن وميضها الأصفر الناعم كان فى عقله لقد ساعدته هذه الأضواء . وجدف للحظة بدون مجهود فحيث توجد الأضواء يوجد الناس وحيث يوجد الناس توجد النجدة . فخمن منزل من هذا ؟ هل هو من البيض ؟ وأختفى الخوف الأضواء للحظة . لكنه واصل تجديفه وومضت مرة ثانية ووميضها الناعم يساعده على التجديف .

— أبى ، الا تستطيع الذهاب الى هناك ؟

— اسكت يا بنيوى .

وبقدر ما أقتربت الأضواء بقدر ما أنخفضت . وجرى فكره بأحداث الماضى فى أوقات اخرى قضاها على طريق بيك وفى ليال اخرى لتخبره من يعيش حيث تومض هذه الأضواء الصفراء . لكن الأضواء ظلت وحدها ولم تخبره أحداث الماضى بشىء .

ربما أستطاعوا الاتصال تليفونيا بالبلدة . وأحضروا قاربا لحمل لولو ؟ ربما أستطاعت أن تنال بعض الراحة هناك . صارت الأضواء قريبة جدا الآن . ولمعت مربعات الضوء الصفراء فى الظلام . كانت هذه نوافذ فحملق فى الأضواء شاعرا بالجوع والعطش والتعب وعاود الصداع راسه ثانية * وصار المجدافان ثقيلين بل اثقل من أن يمسكا وسار القارب تحت النوافذ فنظر وهو يسعل .

سأل بيوى :

— هل هذه هى المستشفى ؟

فسألت جرينى :

— هل سندخل هناك يا مان ؟

فقال مان :

— انى أنادى .

وأحاط فمه بيده كالميكروفون صائحا :

— هالو .

وأنتظر ثم نظر الى النوافذ فسمع الماء المغرق يبتلع صوته.

فصاح مرة ثانية :

— هالو .

وفتح شباك بضجة كبيرة . وأطل وجه أبيض فى الضوء .

— يا الهى هذا رجل ابيض ..

— من هناك ؟

— مان .

ـــ مــن ؟

ـــ مان . زوجتى مريضة انها فى حالة وضــع . انى أحملها الى المستشفى هل لك أن تتصل بالتليفون هناك ؟

ـــ انتظر دقيقــة .

كانت النافذة خالية . وكان هنـــاك سكون . فانتظر ووجهه يتجه لأعلى . ورفع المجدافين وأوقف القارب فى التيار السريع. ثم أطل وجه أبيض للمرة الثانية . وانطلق قلم من الضوء فى الظلام وســقطت بقعة من الاصــفرار على القارب فأغمض عينيه . ولم ير شيئا .

ونادى مرة ثانية متحاشيا بريق النور :

ـــ هل اتصلت بالتليفون يا سيد ؟

ســكون .

ـــ زوجتى مريضة . هل أتصلت بالتليفون .

فجاء صوت بارد غاضب :

ـــ أيها الزنجى ، من أين سرقت هذا القارب ؟

وصارت النافذة ممتلئة بوجوه بيضاء . ورأى مان امرأة بيضاء ذات شعر أحمر فارتد الى المجدافين فى خوف . واغمض عينيــه عندما قفز الضوء فوق وجهه .

ـــ أين سرقت هذا القارب يا زنجى (هذا قاربى) وســمع مان أصواتا أكثر نعومة .

ـــ هذا قاربنا يا ابى . انه أبيض .

ـــ هذا قاربنا يا هنرى . هذا قاربنا ..

— ألا تسمعنى يا زنجى . أعد هذا القارب الى هنا .

وأنطلقت رصاصتان من مسدس . فصرخت جرينى ومسح مان المجدافين وهو مغمض العينين ومال القارب ، يا الهى . هذا هيرت فيلد وقد أحضر بندقيته وشعر مان بالماء يطرحه بعيدا .

— يا زنجى ألم تأخذ هذا القارب سأقتلك .

وسمع طلقتين آخريين : ومال القارب على الخشب محدثا صوتا عاليا والقى على ظهره فيظر لأعلى محاولا أن يحتفظ بالنوافذ الصفراء فى مستوى نظره وخيل اليه — للحظة — بأن النوافذ مظلمة . لكن النور اللامع هو الذى ذهب فحسب . وأمسك تنفسه وشعر بالقارب يضرب فى حائط مهتزا مع التيار . ثم ظل ساكنا . وبدا كأنه وقع بين حائطين ومس جدارا داخليا وحاول أن يقيمه واهتز القارب وغمرته موجة من الماء البارد وصار القارب مقوسا مرة ثانية ونظر الى النوافذ وانفجر مربع ثالث من الضوء . وراقب رجلا ابيض بوجه أحمر قاس جاء خارجا من ممر طابق أرضى ووقف ظاهرا فى البوابة نصف المضاءة . كان الرجل مرتديا قميصا أبيض وكان يلعب بالاطار الاصفر المحيط بالماء الاسود . وفى يده اليمنى كانت تلمع بندقية. كان الرجل يسير ببطء . فى الدور الارضى خارج درجات السلم وتوقف محدقا فى حافة الماء . ودوى صوت جمهورى :

— يا زنجى أحضر هذا القارب هنا يا زنجى .

ظل مان ساكنا جامدا . وحدق فى البندقية التى بيد الرجل الابيض واندفعت غصة باردة خارجة من معدته الى حلقه

ورأى دائرة صفراء تدور حـــول جانب من المنزل . وتوقف الرجل الابيض وصوب ثم أطلق رصاصته :

— انه يعتقد أننى انتهيت يا الهى .

ثم انفغر فاه وجفت شفتاه عندما تنفس .

— يا ابن الكلبة . احضر قاربى الى هنا .

همست جرينى .

— مان .

بحث مان فى جيبه عن بندقيته وأمسكها مبتعدا . وارتعدت يده . وراقب الدائرة الصـــفراء تقفز فوق المـــاء المظلم علـــى بعد خمسين قدما منـــه وأخذت تتوقف للحظات فحسب . باحثة فى كل بوصة من المـــاء .

وعندما صارت الصق بمان رفع بندقيتـــه . ودارت الدائرة ذهابا وأيابا . واختنق حلقه وصمت . ثم ارتفعت الدائرة عنـــه بضعة أقدام . والتقى الضوء الخاطف به ومر مخلفا الظـــــلام وكانت هناك صرخة . القى مان بالبندقية فى قـــاع القـــارب وأمسك بالمجدافين والقى بكل ثقله عليهما مثبتا اياها فى الجدران وجدف عكس التيـــار .

— هنرى . هنرى .

جدف مان وسمع جرينى تصرخ وشعر بالضعف من أثر الخوف، كانت لديه رغبة لا شعورية فى التوقف وشعر بالضياع لانه اطلق الرصاص على رجل أبيض ، وشعر بأنه لا فائدة من تجديفـــه لمسافة أبعد . لكن التيار حارب القارب فحاربه هو بالمجدافين .

— هنرى . هنرى .

كان هذا صــوت سيدة تتوسل ثم صياح صوت أقل سنا حــاد شرس وعنيد .

ــ قتله الزنجي لقد قتل الزنجي أبي !

واصل مان تجديفه في الظلام على وجه المــاء الاسود ولم يعد يستطيع أن يرى الأضواء الآن . كان على الجانب الآخــر من المبنى . لكن الصرخات جاءت واضحة :

ــ قف أيها الزنجي . قف . لقــد قتلت أبي أيهــا الخــائن أيهــا الزنجي .

ــ هنري . هنري .

وسمع مان جريني وبيوى يصيحان . لكن بكاءهما جاء اليــه من طريق بعيد . كأنما كان بعيــدا جــدا مثل الاصوات التي كانت تصرخ . كان من الخطأ بالنســبة اليه أن يستريح كلمــا مال على المجداف الايسر . ثم على الايمن . موازنا القــارب في منتصف جدران الظلام . ثم صار مرة واحــدة باردا بلا ثورة . وشعر بأن قيــادته للقارب الى المستشفى الآن لا تعني شيئا . وصرخ صوتان في اذنيه :

ــ قف يا زنجي . قف يا زنجي . هنري هنري .

ودوى صداهما حتى بعد أن صارا بعيدا عن مصدرهما .

ثم فجــأة صار التجــديف اكثر سهولة . وقد عاد الآن الى الفضاء مرة ثانية بعيدا عن المنــازل ولم يصبه اى قلــق الآن لبعده عن الاتجاهات لأنه علم بالضبط أين هو فلم يبق الا نصف ميل ويعبر مرعى باريت ويطرق الشوارع وربما الاضواء.وواصل التجديف سامعا صياح جريني وهو يرى هيرت فيلد قادما علــى الدرجات الضيقة بالنور الخاطف والبندقية ، فقال في نفسه .

ـ لكنه أطلق على الرصاص قبل أن أطلقه عليه . وطافت به فكرة أخرى جعلته يلقى بالمجدافين .

ـ فلنفــرض أن عشيرة هيرت فيلد اتصلت تليفونيا بالبــلدة واخبروهم بأننى أطلقت عليه الرصاص ؟

ونظر حوله يائسا فى الظلام :

ـ يا الهى . لا أريد أن اقحم عشيرتى فى الموت .

واهتز القارب على جانبيه بفعل تموجات التيار .

كانت جرينى تهمس :

ـ لولــو

فسأل مان :

ـ كيف حال لولو ؟

فسعلت جرينى قائلة :

ـ انها نائمة كما أعتقد .

والآن انى ماض للأمام .

ـ ولكن ما العمل الآن وهو لا يستطيع أن يستدير للخلف نحو التلال . ولا مع لولو فى هذا القــارب ، ولا مع لولو فى حالتهــا السابقة . فصر على أسنانه وأمسك بالمجدافين وأخذ يعمــل بهما ، وعاليا فوق رأســه زارت طائرة فنظر لأعلى ورأى مثلثا من الأنوار الحمراء والخضراء تلوح فى الظلام . كانت أصابعه ساخنة وفاقدة الاحساس . كأنما كل احساس يديه قد تحــول الى النــار . لكن جسده كان باردا وكانت النســمات الخفيفــة تجفف عرقه .

تكلمت جريني قائلة :

ـــ هناك أضواء البلدة . يا مان .

فالتفت نحوها . وقد تأكد تماما أن الأنوار هنـــاك تتلألأ فى وميض خاطف . وأخذت الظلمة تدفن فى الاشعة الصـــفراء . الله وحده هو الذى يعـــلم ماذا يحـــدث عند دخوله البلدة ... لو لم يذهب بـــ « لولو » الى المستشفى .

ولو أمكنه فقط أن يخرج جريني وبيوى سالمين من هذا المـــاء. ومن ثم تكون أمامه فرصة للابتعاد . وكان يعلم أن هذا ما يريدونه أن يفعله . فمسح المجدافين وتذكر سماعه أقاصيص عن عائلات قد قتلت بأكملها لأن بعض الاقارب ارتكبوا خطأ ما .

وأضاء شعاع سريع المـــكان المقفر والميـــاه المرتعدة ثم دوى الرعد ، عاليـــا وطويلا كصوت جبـــل ينهار ، أخـــذت السماء تمطر مطـــرا غزيرا مفاجئا . وسال المـــاء على ظهر رقبتـــه وشعر بـــ « جريني » تتحرك.كانت تغطى لولو بمعطفها فجدف بمزيد من السرعة ، محدقا فى المطر قاصدا الوصول بسلام قبـــل أن يمتلىء القارب بمزيد من المـــاء . فبعد خمسين ياردة أخرى أو ما يقـــرب من ذلك سيصبح وســـط المنـــازل . نعم . اذا سألونى هنا عن هيرت فيلد فسأخبرهم بالحقيقـــة . لكنـــه كان يعلم بأنه لا يريد أن يفعل ذلك . فهو يعرف ان ذلك لن يساعده لكن ما الذى أمامه أن يفعله غير هذا ؟ نعـــم . ان عليـــه أن يقـــول الصدق ويثق فى الله لا أحـــد سوى الله يمكنه رؤيتـــه وهو يفعل هذا ثم حدث نفســـه :

ـــ لم يكن بوب سيسرق هذا القارب .. لكنى فيه الآن ..

وسعل . مجدفا وهذا المطر . هذا الجسم المتبقى سينهار بفعل هذا المطر .

ـــ يا الهى . امنحنا الرحمة .

وخفض ذقنه وصمم على الا يفكر . أن عليـــه أن يثق بالله ويظل ماضيا فى طريقه هذا كل شىء . كانت قدماه وملابسه مبتلة. وزادت حدة التيار مما جعل القـــارب كأنه لا يتحرك . نعم ـــ فكر ـــ هذا شارع روز . وأرسى القارب بين صفين من المنازل.

ـــ قف . من يسير هناك ؟

فجذب المجدافين . وقابلته كتلة من الضوء المنطلق من شرفة بالطابق الثانى جعلته لا يرى . واستند جنديان أبيضان فى بزتين من قماش « الكاكى » على الســـور . كان وجهـــاهما كمربعين احمرين وكان يمكنه أن يرى لمعـــان الصلب فى طرفى بندقيتيهما . حسنا سيعلم الآن . ربما لم يسمعا بعد عن هيرت فيلد .

ـــ الى أين أنت ذاهب يا زنجى ؟

ـــ انى آخذ زوجتى الى المستشفى يا سيدى انهـــا فى حالة وضع يا سيدى .

ـــ ماذا ؟

ـــ زوجتى فى حالة وضع يا سيدى . انى آخذها الى الصليب الأحمر .

ـــ اصعد الى درجات السلم .

ـــ حاضر يا سيدى .

فحول القارب وتوجه نحو الدرجات التى تؤدى الى المـــاء .

وزمجر الجنديان عليه قائلين .

ـــ ما اسمك ؟

ـــ مان . يا سيدى .

ـــ هل أحضرت تصريحا ؟

ـــ لا يا سيدى .

ـــ الا تعرف انك ترتكب عملا من أعمال العنف ؟

ـــ لا يا سيدى .

ـــ ماذا كانت هذه الطلقات النارية هناك منذ برهة ؟

ـــ لا أعلم يا سيدى .

فقال أحد الجنديين :

ـــ فتشه . يا ماك .

ـــ وهو كذلك . قف يا زنجى .

وجس أحد الجنديين ساق مان .

ثم قال مان فى نفسه :

ـــ يا الهى اتعشم الا يرى هذا المسدس الذى فى القارب . .

ـــ انه على ما يرام .

ـــ ما أسمك الذى ذكرته ؟

ـــ مان يا سيدى .

ـــ من أين أنت قادم ؟

ـــ من اقصى الجنوب يا سيدى .

ـــ أقصد من أين هذا القارب ؟

ـــ من اقصى الجنوب يا سيدى .

ـــ هل جدفت الى هنا ؟

ـــ نعم يا سيدى .

— فى هذا القـــارب .

— نعـــم .

ونظر الجنديان الى بعضـهما البعض :

— هل ارتكبت اثما . الم تفعل يا زنجى ؟

قـــال مان :

— اوه . لا يا سيدى .

— ماذا أصاب امرأتك ؟

— انها فى حالة وضع يا سيدى .

فضحك أحد الجنديين :

— حسنا سيكون على اسمى . يازنجى . لقد نلت الجائزة . فطالمـــا سمعت بأن الزنجى يفعل أى شىء . لكنى لم اظن أبـــدا أن هناك شخصا غبيا لدرجـــة انه يجـــدف ضد التيار !!

— لكن يا ســـيدى أن زوجتى مريضة . انهـــا مريضة منـــذ أربعة أيام .

— حسنا أبق هنا . ساطلب قاربا بالتليفون ليحملكم .

— حاضر يا سيدى .

صعد أحد الجنديين الدرجات وربط الآخر قارب مان بحبـــل وقـــال :

— يا زنجى أنت لا تعرف كم أنت محظوظ . فقـــد غرق ستة رجال اليوم محاولين الذهاب الى البلدة . فى قوارب تجديف . وهذا أنت قد حضرت تجدف بثلاثة . .

وعاد الجندى الذى ذهب ليتصل بالتليفون . فقال مان :

ـ يا سيدى لو سمحت هل لى ان أحمل زوجتى الى هنـــاك بعيدا عن المطـــر ؟

فهز الجندى رأسه .

ـ انى آسف يا غلام . الأوامر تحتم بألا يدخل هذه المنـــازل الا الجنود فحسب ! ان عليك انتظـــار القـــارب انه قريب حول الركن ولن يغيب كثيرا . لكنى لا أعرف كيف بالجحيم سرت بهذا القـــارب بين هذه المنـــازل دون أن تغرق !

ـ لابد انك عانيت الويل ؟

ـ نعم يا سيدى .

ورأى مان قاربا كهربيا يسبح حول قوس ، وضوؤه الرئيسى يكون قوسا واســـعا والموتور يزأر . ودار فى بحـــر من الرغاء والزبد . كان يقوده جنديان تقطر حلتيهما مطرا .

ـ من المقبوض عليـــه ؟

فقـــال أحد الجنديين :

ـ يا غلام . أمسكت زنجيا هنا يضرب كل شخص . كـــان يجـــدف من أقصى الجنـــوب . ضد التيـــار . هل تســـتطيع أن تتصور هـــذا ؟

فنظر الجنديان اللذان فى القـــارب الى مان وقـــال أحـــدهما وهو يدور بأصابعه :

ـ أنت ؟

فقال الجندى :

ــ انى اخبرك بالصدق ، الم تفعل هذا يا غلام ؟

ــ نعم يا سيدى .

ــ حسنا ماذا تريد منا ان تفعل ؟ اعطه ميدالية ؟

ــ لا . فزوجتى مريضة . تحمل فى بطنها طفلا أسود ، احملها الى مستشفى الصليب الأحمر .

فنظر الجنديان اللذان فى القارب مرة ثانية الى مان .

ــ لقد تجمهروا هنــاك يا غلام ..

صاحت جرينى ممسكة برأس لولو على صدرها :

ــ يا الهى أمنحنا الرحمة .

وقــال مان :

ــ يا سيد ، لو سمحت . لا تستطيع زوجتى أن تتحمل الانتظار لمــدة أطول من هذه .

ــ حسنا . أربط قاربك يا زنجى . وهيا نركب .

فأمسك مان بالحبل الملقى اليه وقيده بحلقــة فى نهاية قاربه كان واقفــا عندما قــال أحــد الجنود مستسلما :

ــ راقب نفسك . يا زنجى .

وزأر الموتور وانطلق القارب للأمام فسقط مان مقــابل جرينى ولولو وبيبوى . وتصلب بمجــرد ما بدأوا الرحلة ومال قاربه ، ثم اعتدل القــارب بنفسه . وكانت القيــادة فى المدة البــاقية سائرة رأسا فى الظــلام وقد مســح المــاء بصعوبة من عينيه

قبـــل ان يصلوا الى موقفه ودارت اصابعه بعصبية باحثة فى قناع القارب عن المسدس فوجده ودسه فى جيبه .

ـ حسنا يا زنجى افرغ حمولتك .

فنهض واقفا وصعد صفا من الدرجات الواسعة .

ـ هل هذه هى المستشفى يا سيدى ؟

ـ نعم . رأسا .

وحمل لولو وخطا للخارج وتبعته جرينى . وقد امسكت بيوى من يده . وعندما وصل الى قمة الدرجات فتح الباب بواســطة جندى أبيض آخر .

ـ الى اين أنت ذاهب ؟

ـ لقد احضرت زوجتى يا سيدى انها مريضة ..

ـ ابق فى الخارج حتى ترى العلامة .

ـ حاضر يا سيدى .

وهبط فى صالة نصف مضاءة . والتصقت جرينى وبيــوى بجواره . وشم الرائحة الدافئة للجلد والادوية فجعلته يقشعر. وأخيرا . رأى العلامة :

ـ للملونين .

فدفع بابا وفتحه ووقف مغمض العينين فى ذهول من الاضواء الساطعة . وجاءت ممرضة بيضاء .

ـ ماذا تريد ؟

ـ لو سمحت يا سيدتى .. زوجتى .. انها مريضة .

فالقت الممرضة الملاءة وجست نبض لولو . ونظرت الى مان مستفسرة ثم التفتت سريعا منادية :

ـ دكتور بوروز .

فجـاء طبيب ابيض . ونظر فى وجـه لولو . كانت عينـاها مغمضتين وفمها مفتوحا .

قال الطبيب :

ـ احضر بها الى هنا . الى المنضدة .

فحمل مان لولو . كان وجهها وشعرها وملابسها تقطر بللا . وسقط ذراعها الأيسر من المنضدة . وظل معلقا . انحنى الطبيب فوقها وجذب جفون عينيها .

ـ هذه امرأتك ؟

ـ نعم يا سيدى .

ـ كم كانت مدة حالة وضعها ؟

ـ حوالى اربعة ايام يا سيدى .

ـ لمـاذا لم تحضرها فى الحال ؟

ـ لم يكن لدى قارب وكان المـاء يطاردنى يا سيدى .
فرفع الطبيب عينيه وحك ذقنه ونظر الى مان ، متحيرا وقال :

ـ حسنا يا غلام انها ميته !

ـ سيدى ؟

صرخت جرينى وأمسـكت بيوى ، وتصلب الطبيب ووضـع السماعة على منضدة رخامية بيضاء . وانعكست الأضواء داخل

الحجرة وزار الرعد من بعيد مخلفا سكوتا يتخلله صوت مطر قوى منهمر .

قال مان :

— سيدى ..

— ٣ —

قال الطبيب

— حسنا يا غلام . لقد انتهى كل شيء . ربما لو كنت قد حملتها الى هنا قبل ذلك بقليل لكنا قد انقذناها هى والطفل ، على اى حال لكن كل شيء قد انتهى الآن . وأفضل شيء يمكن أن تفعله هو أن تأخذ عشيرتك الى التلال .

وحدق مان فى الوجه الأسود النحيل فى الملابس المبللة ، فى الذراع التى لا تزال معلقة وفاقدة الأحساس . وتحركت شفتاه لكنه لم يستطع التحدث وجاءت ممرضتان أخريان وطبيب أبيض آخر ووقفوا . وجرت جرينى الى المنضدة صائحة :

— لولو !

فقال الطبيب وهو يجذبها بعيدا .

— لقد انتهى كل شيء يا عمتى .

فانزلقت جرينى الى الأرض ورأسها على ركبتيها صائحة :

— يا الهى ..

ووقف مان الآن كالحجر . لولو ميتة ؟ وبدا كأنه لا يرى الأطباء

والممرضات البيض متجمعين حوله . ناظرين اليه . وسعل وسقطت جفون عينيه على سوادها .

قالت ممرضة بيضاء :

— أيها الزنجي المسكين .

فحدق مان فيها . وبلل شفتيه وابتلع لعابه . وضغط شيء على ركبته فنظر لاسفل . كان بيوى متعلقا به ووجهه الأسود الصغير ينطق بالخوف فأمسكه من يده . وسار الى الحائط ووقف فوق رأس جريني مترددا . ومست أصابعه كتفها .

قال الطبيب :

— أنتهى كل شيء احملوها بعيدا .

فالتفت مان ورأى ممرضتين بيضاوين تدفعان لولو داخل باب فاختنق حلقه . وحاولت جريني النهوض لتتبع الجسد فجذبها مان من ظهرها فسقطت على الأرض ثانية . صائحة !

قال مان :

— أنتهى كل شيء يا جريني .

وسأل الطبيب :

— هل أحضرت قاربا يا ولد ؟ انك محظوظ .

عليك أن تواصل الرحيل راسا الى التلال . قبل أن يزداد هذا التيار عنفا .

— حاضر يا سيدى .

ونظر مان مرة ثانية الى جريني وتحركت نداه نحوها ثم توقفت

وبدا انه يريد ان يقول شيئا فوق هذا . ان يفعل شـيئا . لكنه لم يعرف ما هو هذا الشيء قال :

ـ تعالى يا جرينى .

فلم تتحرك . فنظرت اليهم ممرضة بيضاء بعصبية . ووقف مان يعصر راحتيه ، متخـذا من الالم الشـديد تعويضا بالعفو والنسيان . واخذت ساعة تدق . وكان يسـمع تنفس جرينى يتحشرج لاعما فى حلقها . وكان يسمع تنفس الأطباء والمرضات ومن جدران الحجرة يسمع وقع المطر المنهمر . وفى مكان ما رن جرس رنينا ضعيفا وبعيدا . وسمع صوت شيء ينهار . فقفز كل شخص واطلقت احدى المرضات صرخة قصيرة .

ـ ما هـذا ؟

ـ اوه . انه مجرد كرسى سقط . هذا كل ما فى الأمر ..

ـ اوه .

ونظر الأطباء الى المرضات ونظرت المرضات الى الأطبـاء ثم ضحكوا جميعا بصعوبة . وساد المكان صمت آخر .

تكلم الطبيب :

ـ هل هذه امك التى هناك يا ولد ؟

ـ نعم . أم زوجتى .

ـ سيكون عليك ان تحملها بعيدا عن هنا

فقال مرة ثانية :

ـ تعال . يا جرينى .

فلم تتحرك . فوقف ورفعها لأعلى .

ـــ تعال يا بيوى .

واجتاز الباب وهبط الى الصالة يجر بيوي من ذيل معطفه .

ـــ هاى . انت .

فتوقف . وصعد جندى أبيض .

ـــ أين انت ذاهب ؟

ـــ سأركب قاربى لأحمل عائلتى الى التلال .

ـــ كان قاربك مصادرا . تعال هنا وانتظر لحظة .

ـــ مصادر .. مصا .. د .. ر ..

كنا فى احتيـــاج الى قوارب صغيرة وكان عليهـم ان يأخـــذوا قاربك ولكنى سأحضر قاربا بموتور ليحملك ويحمل عائلتك الى التلال . انتظر هنا دقيقة .

فأنتظر وجرينى بين ذراعيه . يا الهى . لقد امسكوا بى الآن. انهم يعرفون ان ذلك هو قارب هيرت فيلد وربما يعدون العـــدة لحملى بعيـــدا ؟ ما الذى يفعلونه برجل اسود قتل رجلا ابيض فى عراك ؟ لم يكن يعرف . لكن مهما كان الذى سيفعلونه فانه سيكون اكثر رعبا عما حدث فى مرات اخرى . وتامل فى نفســـه من قدم الى قدم ، كان متعبا اكثر مما يتصور . ورأى لولو راقدة على المنضدة وسمع الطبيب يقول :

ـــ حسنا يا أولاد أنها ميتة .

ـــ والتهبت عيناه وقال :

ـــ يا الهى انى لا اهتم بما سيفعلونه بى . انى لا اهتم ..

ـــ ابى . اين امى ؟

ـــ رحلت يا بيوى .

ـــ الن تأتى معنا ؟

ـــ انها ذاهبة لتبقى مع الآلهة الآن يا بيوى .

ـــ بعيـــدا ؟

ـــ بعيدا يا بيوى .

فصاح بيوى :

ـــ اســـكت يا بيوى . كن ولدا طيبـــا الآن . لا تصح انى هنا وجرينى ...

عاد الجندى الأبيض مع الكولونيل

ـــ هل هذا هو الزنجى ؟

ـــ انه هـــو .

ـــ هل كان قاربك الذى بالخارج ؟

فتردد مان .

ـــ نعم يا سيدى .

ـــ قارب أبيض .

ـــ هل أنت واثق أنه كان ملكك ؟

فابتلع مان لعابه وتردد مرة ثانية

ـــ نعم يا سيدى .

ـــ كم كان يســـتحق ؟

ـــ لا ادرى يا سيدى .

ـــ حوالى خمسين دولارا كما أعتقد .

قال الطبيب مقدما ورقة وقلم رصاص :

ـــ وقع هذه .. هنا .. نستطيع ان نعطيك ثلاثة وخمسين دولارا عندما تستقيم الأمور . كان علينا أن نأخذ قاربك . فقد كنا فى حاجة الى قوارب . لكنى اتصلت تليفونيا طالبا قاربا بموتور ليحملك وعائلتك الى التلال . وستكون فى أمان بهذه الطريقة .

ـــ حاضر يا سيدى .

واجلس جرينى على البلاط وسعل .

ـــ هل هذه امك ؟

ـــ نعم يا سيدى . أم زوجتى .

ـــ ماذا أصابها ؟

ـــ انها عجوز فحسب يا سيدى . فابنتها ماتت منذ برهة . وقد صدمها هذا .

ـــ متى ماتت ؟

ـــ الآن حالا يا سيدى .

ـــ اوه . انى أعرف . ماذا اصابك ؟ هل انت مريض ؟

ـــ لا يا سيدى .

ـــ حسنا . هل تريد أن تذهب الى التلال . فكل عشيرتك من السود ذهبت الى التلال وتستطيع ان تبقى هنا . وتساعد فى بناء الجسر ..

— يا كابتن لو سمحت . انى متعب

قال الكولونيل ملتفتا الى الجندى الابيض

هذا امر حربى ضع هذه المراة والغلام فى قارب واسبح بهما الى التلال اعط هذا الزنجى بعض الأحذية ومعاطف واقية من المطر واحمله فى قارب الى الجسر .

فحيا الجندى .

— حاضر يا سيدى الكولونيل .

— يا كابتن . لو سمحت أرحمنى يا كابتن .

فدار الكولونيل على عقبيه وسار بعيدا .

— انى متعب . دعنى أذهب مع عائلتى لو سمحت .

فحدق الجندى فى مان .

— أوه . تعال يا زنجى . ماذا دهاك ، يا للجحيم ؟ فكل باقى الزنوج هنا كيف لا تريدون الذهاب معنا الى الجسر ؟

راقب مان الجندى وهو يذهب الى الباب ويفتحه وينظر خارجا فى المطر . وهمست بعرينى :

— مان .

فمال اليها ويداه على ركبتيه .

— اذهب انت الى الجسر . فربما كانت عشيرة هيرت فيلد خارجا فى التلال الآن . اذهب الى حيث قد توجد عشيرتنا لتبتعد عن هنا .

وناداهم الجندى .

ـ تعالوا . هنا قاربكم .

فهمس مان :

ـ هنا يا جرينى .

ودس الخمسين دولارا التى اخذها من بوب فى يدها .

فقالت :

ـ الآن . احفظها انت معك

فقال مان :

ـ خذيها انت . الآن .

ودفع بالنقود فى جيب معطفها .

ـ تعال يا زنجي . فهذا القارب لم ينتظر طوال الليل من اجلكم .

فانتشل جرينى لأعلى مرة ثانية وحملها نازلا بالدرج وتبعه بيوى صائحا وكانت السماء تمطر بغزارة . وبعد أن ساعدها على ركوب القارب وقف على الدرجات .

ـ يا الهى ، كم تمنيت لو استطيع الذهاب .

ـ الكل مستعد .

ـ الكل مستعد .

ودار الموتور وانطلق القارب فوق الماء وضوؤه ينقطع تحت المطر .

نادى بيوى :

وداعا .

فقال مان وهو غير متأكد من انه قد سمع بيوى .

— وداعا .

وصاح مرة ثانية :

— وداعـــا .

— تعال . يا غـــلام . هيا لتحضر حذاءك ومعطفك الواقى من المطر . فانك ذاهب الى الجسر .

— حاضر يا سيدى .

وتبع الجندى الى المكتب .

تحدث الجندى الى جندى آخر يجلس بجوار مقاعد خشـــبية قائلا :

— جاك احضر حـــذاء برقبة ومعطفا واقيا من المطر لهـــذا الزنجى واطلب قاربا ليحمله الى الجسر .

وخرج الجنـــدى الاول . فوضع مان قدميه فى الحـــذاء حتى بلغ ساقيه وارتدى المعطف الواقى من المطر .

وسأل الجندى

— هل أنت متعب يا زنجى ؟

— نعم يا سيدى .

— حسنا ستمضى ليلة قاسية . وهذا ليس كذبا .

— حاضر يا سيدى .

جلس مان ارضا وأراح ظهره الى حائط واغمض عينيه وقال :

ــ يا الهى .

ــ وسمع الجندى يتحدث فى التليفون :

ــ نعم . نعم .

. . . .

ــ مستشفى الصليب الاحمر .

ــ الزنجى هنا الآن ينتظر .

. . . .

ــ وهو كذلك .

وسمع مان السماعة تركز فى موضعها فى عنف ... قال الجندى :

ــ سيكون القارب هنا فى أى دقيقة . وأنت تستريح . فك هذه الصناديق واخرج محتوياتها على الأرض .

ــ حاضر يا سيدى .

وقف مان وهز رأسه . وملأ الم حاد مقدمة عينيه . ولم يفارقه فذهب الى مؤخرة الحجرة حيث توجد كومة من الصناديق الخشبية وأحضر (مفكا) وابتدأ يفتح رأس الصندوق ثم أخذ يخرج المعاطف الواقية من المطر واحذية المطاط (الكاوتشوك) وعمل آليا ، ببطء مستندا الى الصناديق وهو يشم رائحة المطاط ودخان التبغ . وتحسس المسدس فى جيبه. وتذكر هيرت فيلد وقال فى نفسه :

ــ ان على ان ابتعد عن هذا بأى طريق . واذهب الى حيث لا يستطيعون العثور على . يا الهى . حافظ على جرينى

حافظ على بيوى يا الهى حافظ على بوب وساعدنى . يا الهى .

وفكر فى لولو وهى راقدة على المنضدة الرخامية وذراعها معلقة بلا احساس ، اسقط مجموعة المعاطف الواقية من المطر التى كان يمسكها ومال عليها منتحبا .

ـــ ماذا حدث يا زنجى .

ـــ انى متعب يا كابتن . الله يعلم انى متعب .

وانزلق الى الأرض .

ـــ عم تصيح .

ـــ يا كابتن زوجتى ميتة . ميتة .

فقال الجندى :

ـــ عجبا يا زنجى يجب أن تكون مسرورا لانك لم تمت فى فيضان كهذا .

حدق مان فى أحذية المطاط والمعاطف الواقية من المطر .. واخذ يحدث نفسه .

ـــ يا الهى لا يمكننى أن انهار الآن فسيعلمون ان خطأ ما قد حدث اذا ظللت اتصرف هكذا ... لا أستطيع ان اصرخ على لولو الآن .

ـــ ومسح الدموع من عينيه باصابعه .

ـــ هل لى ببعض الماء يا كابتن ؟

ـــ لا يوجد هنا اى ماء هل انت جوعان .

لم يكن به من جوع لكنه اراد ان يشعر الجندى بتعبه .

ـــ نعم يا سيدى .

ـــ هنا سندوتش يمكنك أن تاكله .

ـــ أشكرك ، يا سيدى .

وتناول السندوتش وقضمه . فانتفخ الخبز الجاف فى فمه . ففتته وحاول ان يبلله . لو اهتم هذا الجندي العجوز به فحسب . ثم ابتلع ريقه وانزلقت اللقمة الجافة فى حلقه ببطء ، خانقة اياه .

فقال الجندى :

ـــ سيجعلك هذا تشعر بتحسن .

ـــ نعم يا سيدى .

وفتح الباب .

ـــ حسنا يا غلام . هنا قاربك هيا نذهب .

ـــ حاضر يا سيدى .

فوضع الساندوتش فى جيبه وتبع الجندى الى السلم .

ـــ هل هذا هو الزنجى .

ـــ نعم .

ـــ حسنا . . اركب يا ولد .

فركب ودار القارب وسوط المطر يلسع وجهه . فمال لأسفل ممسكا بجانبى القارب عندما اندفع خلال الماء واغمض عينيه ومرة ثانية رأى هيرت فيلد آتيا من الشرفة الضيقة وهابطا السلم . وسمع مرة ثانية طلقتى بندقية :

ــ لكنه أطلق على الرصاص قبل أن اطلقه عليه .

ثم مرة ثانية رأى لولو راقدة على المنضدة بيدها معلقة بلا احساس ثم سمع بيوى ينادى . وداعا وملأه الكره ، وشاهد الجنديين فى المقعد الأمامى . كان رأساهما مائلين لأسفل . لا بد أنهما سيصلان فى أى دقيقة الآن .. كانت بندقيته لصق فخذه . لنفترض أننى أطلقت عليهما الرصاص وأخذت القارب ؟ لا . لا . فمن الأفضل أن ينتظر حتى يذهب الى الجسر فربما يعرف أحدا هناك . فيساعدونه كان يعرف أنهم سيفعلون ذلك . وسيكون البيض لابد مشغولين فى هذا الجسر لدرجة تصرفهم عن التفكير فى مجرد أسود مسكين .. وربما استطعت أن أنام هناك ..

تباطأ القارب . وأمامه كانت الانابيب الداكنة للأسمنت وفوق رأسه مائة من بقع الضوء ملتصقة بمروحة واسعة صفراء تقاوم المطر . وما أن دخل القارب بوابة وجذب الى الرصيف حتى رأى الاضواء والجنود وسمع الاصوات تنادى . ووقف الرجال السود على أطراف الارصفة يحملون حقائب الرمل والاسمنت فى القوارب . وكانت خطوط طويلة من القوارب تجرى رائحة غادية بين الجسر والاسمنت . فشعر بدوار واهتز القارب . واستعد الجنديان لتلقى الاوامر وتقدم ضابط من بعيد وعوى قائلا :

ــ هل أحضرتماه .

ــ نعم .

ــ حسنا . لقد أحضرنا شخصا آخر هنا . تعال يا غلام أقفز .

فتحرك صبى أسود بعيدا .

وسأل الصبى :

ــ يا سيد هل لى أن أشرب بعض المــاء ؟

ــ للجحيم . لا . لا يوجــد أى مــاء فى أى مكان . اركب القــارب .

ــ حاضر يا سيدى .

تحرك مان الى حجرة وشعر بتحسن . كان مع أهله الآن . ربما لو استطاع الخروج وسمع الضابط يتحدث الى الجنود .

ــ كيف تسير الأمور ؟

ــ سيئة جدا .

ــ كيف تسير ؟

ــ هل تعتقد أنها ستتمدد ؟

ــ انى أخمن بأن هذا ما ستفعله .

ــ هل جــدث تفسخ ؟

ــ انه يتفسخ فى مكانين .

وصفر أحــد الجنود .

ــ حسنا دعه يذهب .

ــ وهو كذلك .

فمضى القارب يجرفه التيار الى المــاء .

ــ هل لك فى سيجارة يا سيد ؟

فالتفت مان ونظر الى الصبى الجالس على جانبه :

ـــ لا : انى لا أدخن .

قال الصبى :

ـــ كم أتمنى لو أقود هذا القارب .

وعندما اقتربا من الجسر استطاع « مان » أن يرى على بعد خطوطا سوداء من الرجال تتحرك كالحيات عند قمة الجسر. وأمامه كان يشعر بالنهر كأن يدا حية باردة تمس وجهه . كان الجسر صفا من الارض الجافة بين صفين من الماء الاسود. وتحرك الرجال على الجسر ببطء ، كالظلال القائمة . كانوا يحملون حقائب ثقيلة على أكتافهم وعندما وصلوا الى نقطة معينة كانت الحقائب تفرغ ثم تجولوا حولهم ببطء بظهور منحنية، ذاهبين لاحضار مزيد من الحقائب . وكانت (الفوانيس) الصفراء معلقة تروح وتجيء تظلم وتضيء عندما يمر أحد أمامها . وعند حافة الماء يفرغ الرجال القوارب المحملة وبجانبها وقف جنود بأسلحتهم . وظل مان ساكنا ينظر وتوقف القارب وانتظر دوره ليفرغ عند الجسر . وفجأة انفجرت ضجة ضخمة . وصرخت صفارة على قمة الجسر كانت الخطوط الطويلة من الرجال تموج فى كتلة سوداء صاخبة . وارتفعت الصرخات فى زئير جماعى . وجاءت أصوات خشنة تطن . كالأزيز المنبعث من قواقع البحر ، وفى كل دقيقة كانت الاصوات تزداد ارتفاعا ..يا الهى ، فكر مان . لقد ذهب هذا الجسر وراى القوارب ممتلئة بالرجال وكان هناك رعد كوقع أقدام ضخمة عندما دارت آلات القوارب . كان الجنديان فى المقعد الأمامى يلتفت احدهما الى الآخر .

ـــ من الافضل أن تدور حولك يا جيم .

فدار القــارب وسار للخلف .

ــ انتظر هذا القارب وانظر ما حدث .

فتباطأ والتصق قارب آخر بهما .

ــ ماذا حــدث ؟

ــ لقد ذهب الجسر .

ــ مر عليــه يا جيم .

كتم مان تنفسه وبجانبه كانت الصيحات وفــوق الصــيحات كانت صفارة العمل تصرخ وتحــت صرخة الصفارة كان هــدير المياه الثائرة يعلو !

ــ ٤ ــ

انطلق القــارب للخلف . وصرخت صفارة العمل صراخــا عاليا رفيعا حــادا يرتعد فى اذنيه . وادرت حلقــا ت الضــوء الصفراء واهنــة فى السماء . تباطأ القــارب عند اقتــراب الرصيف . كانت هنــاك ضجة عالية ورجال يندفعون . وصاح ضابط :

ــ جهز القوارب لأعمال الانقــاذ .

ــ لقد رفعت . الاترى انها رفعت ؟

كان الصبى الجالس بجانب مان يمسه بكوعه .

نظر مان الى المــاء كانت الأمواج بطيئة تهز القــارب وتذكر أن المــاء كان على بعد بوصات تحت مستوى الرصيف عنــدما

جـــاء اولا وما هو ذا الآن يرتفـــع فوقه . وما ان ابتدأ الرجال فى العمل حتى اندفعت قواربهم فى المـــاء .

سأل الضابط :

ـــ من يستطيع أن يقود قاربا ؟

فقال الصبى :

ـــ يمكننى ذلك يا سيدى .

ـــ احضر معك مساعدا وتعـــال .

التفت الصبى الى مان قائلا :

ـــ هل تريد أن تذهب ؟

فتردد مان قائلا :

ـــ نعم ، سأذهب .

ـــ تعـــال .

فتسلق خارجا وتبع الصبى الى نهاية الرصيف .

سأل الضابط :

ـــ الى أين سترسلهم يا جنرال ؟

ـــ أطلق العشرين الأول الى مستشفى الصليب الأحمر .

ـــ قـــال الضـــابط :

ـــ وهو كذلك . من السائق هنا ؟

فقـــال الصبى :

ـــ أنا السائق .

ـــ هل يمكنك حقا أن تقود قاربا ؟

ـــ نعم يا سيدى .

فقال الجنرال :

ـــ هل يطمأن اليه ؟

فقال الصبى :

ـــ كنت أعمل مع السيد بريدجز .

قال الجنرال :

ـــ لا نريد مزيدا من الزنوج يقودون هذه القوارب .

فقال الضابط :

ـــ ليس لدينا سائقون بدرجة كافية .

ـــ وهو كذلك دعه يذهب . من التالى ؟

هدفك هو مستشفى الصليب الأحمر يا غلام . اذهب الى هناك بأقصى ما يمكنك من سرعة واحمل أكبر عدد تستطيع حمله من الناس وخذهم الى التلال .

ـــ أترى ؟

ـــ نعم يا سيدى

ـــ هل تعرف الطريق ؟

ـــ نعم يا سيدى .

ـــ ما اسمك ؟

ــ برنكلى يا سيدى .

ــ حسنا . استعد للسير .

فجريا الى قارب وقفزا فيه . واضطرب برنكلى أمام الموتور دقيقة ثم أداره .

ــ كل شىء معد .

ــ حسنا .

سبح القارب خارج مدخل البوابة الواسعة كانا أول من ذهب. وذهبنا سريعا ، ضد التيار تحت وابل من المطر . وصارا وسط المنازل قبل أن يتحقق مان من ذلك . وعندما اقتربا من المستشفى بحث مان فى طبيعة الصبى الجالس بجانبه . هل يمكنه أن يساعده فى الابتعاد ؟ هل يستطيع أن يثق فيه لدرجة أن يخبره ؟ لو أمكنه البقاء فى القارب فحسب حتى يحملون حملهم الأول الى التلال لاستطاع ان يفلت . حاول أن يرى وجه برنكلى لكن المطر والظلام لم يدعانه يفعل ذلك . وبجانبه ظلت الصفارة تصرخ وبدت كأن ألفا من الاجراس تدق . ثم توقف القارب قليلا . نظر مان حولة باحثا متحيرا .

فقال :

ــ هذه هى المستشفى .

قال برنكلى :

ــ نعم انها هى .

ثم فهم . كان يراقب درجات السلم العالية التى حمل عليها لولو لكن الماء لم يلبث أن غير الدرجات وكان يستعد لغمر

الطابق الأول . فنظر لأعلى كان نفس الجنـــدى الابيض الذى أدخله من قبل . واقفا فى الحراسة .

ــ ادخـــلا .

فدخلا كانت المستشفى فى صخب . وتحـــت الصالة كان خط من الجنـــود يدفعون الحشود للخلف يستخدمون ظهور بنادقهم . وجاء الكولونيل يجرى حاملا فأسا فى يده .

ــ كم قاربا سيأتى :

فقـــال برنكلى .

ــ حوالى العشرين يا سيدى .

ــ هل هم فى الطريـــق ؟

ــ نعم يا ســـيدى .

ــ عليهم أن يسرعوا . فهذا المـــاء يرتفع بمعدل خمسة أقدام فى الساعة .

والتفت الكولونيل الى مان :

ــ تعال يا غلام .

ــ نعم يا سيدى .

تبع مان الكولونيل صاعدا صفا من الدرجـــات . وتوقفا فى الصـــالة .

ابتـــدأ الكولونيل قائلا :

ــ اسمع أريـــدك ..

لقد ذهبت الأنوار وصارا فى الظلام .

— خيرا يا الهــى .

كان مان يستطيع أن يسمع تنفس الكولونيل فى ضربات ثقيلة. ثم لعبت دائرة من الضوء الاصفر على جدار . كان الكولونيـــل واقفا أمامه وبيده بطارية .

قال الكولونيل موضحا بقعة على يسار السلم :

— أحضر اثنتين من هذه المناضد من الخلف هناك وضع واحدة على رأس الاخرى هنا .

وعندما ارتفعت هاتان المـــائدتان كما قال الكولونيل أعطى مان الفأس قائلا :

— أصعد هناك واحدث فجوة فى هذا السقف .

— حاضر يا سيدى .

وصعد وبحث عن شىء يتعلــق به على المـــائدتين المرتفعتين وعندما صار على القمة . أطلق الكولونيل سيلا من أشعة البطارية على السقف .

— اعمل بسرعة يا غلام ، وعليك أن تخرق فجوة فى ذلك السقف، وبهذا نستطيع أن نخرج الناس منها اذا ضرب المــاء القوارب .

— حاضر يا سيدى .

وضرب بعنف لأعلى مع كل ضربة يغمر الفأس بالخشب وفتـــح ما بين ساقيه على المـــائدتين حتى لا تجذب لأسفل . ونسى كـــل شىء الا أنه يجب أن يخرق فجوة فى هذا السقف لينقذ النـــاس . وحتى مجرد ذكرى لولو وهيرت فيلد غابت عنه : وعرف أن هـــذا يعنى أن الشبكة الكهربية فى الجنـــوب الاقصى كانت تهددها المياه.

وما ان رفـــع الفأس حتى غمر العرق كل جســـمه وســـمع الكولونيل تحته قلقـــا ، اطفئت الانوار ثم أضيئت من جديد .

— ثبت هذا النور على يا كابتن .

ان أمامه ستة عروق من الخشب في السقف الآن فاســـتخدم يديه وكسرها . فالتقطت اصابعه قطع الخشب المدببة . وســـمع أحـــدا يجرى الدرجات . فنظر لأسفل . كان احد الجنود يتحدث الى الكولونيل .

— انها فوق الدرجات يا كولونيل انها تتجه نحو الطابق الأول .

— ألم تأت الى هنا قوارب بعد ؟

— ثلاثة فحسب يا سيدي .

— مر كل شخص بأن يصعد الى هذا الطابق وحافظ على هدوئهم حتى لو استدعى الأمر أطلاق الرصاص .

— حاضر يا سيدي .

وسمع بان الجندى يجرى هابطا السلم .

— تعال يا غلام . اوسع هذه الفجوة اكثر من هذا . عليـــك أن تقطع فجوة أخرى فى هذا السطح .

وعندما صارت الفجوة كبيرة دفـــع الفأس داخلهـــا ودفـــع نفسه داخل حجرة السطح . كانت مظلمة وكان يسمع المطر يدق وفجأة توقفت الصفارة . فقد كان يسمعها دائما وتعـــود أن يستعملها . لكنه الآن لا يستطيع أن يسمعها وصار الســـكون الذى تخلفه فى عقله يبعث الرعب فى نفسه .

ـــ أريد بعض الضوء هنا . يا كابتن .
واصل القطع . فسأحضر شخصا ليرفع البطارية لأعلى .

كان السطح قد أسهم فى قطعة من السقف . وسمع شـــخصا يتسلق لأعلى بجواره . كان من ورائه جنـــدى أبيض يحمـــل بطـــارية .

ـــ أين تريد الضوء يا غلام ؟

ـــ هنا يا سيدى .

وبسرعة مزق فجوة واسعة . وشعر بصاروخ من الهـــواء . وهب المطر فى وجهـــه وملأ اذنيه فتسلق صاعدا السطح . ونظر تحته . أمامه كانت المستشفى وحفنة من القـــوارب الكهـــربية تتراقص فى مهب التيـــار . تتصلب . كانت هناك ضجة عاليـــة . كالصوت الناتج من تحطيم أخشاب البنـــاء . وتمدد منبســـطا على السطح وامسك عروق السقف الخشبية . وخـــلال ممرات الضوء الصفراء كان هناك منزل صغير يدور كالعجلة وسط الميـــاه العنيفة فى تدفقها . وراقبه دون أن يصـــدق وهـــو يختفى النظـــر ، ربما لن أخرج من هنا . . كان هنـــاك مزيد من القوا تزأر وتتأرجح . ثم حدق فى المـــاء المرتفع وكان يمكنه رؤيته وهو آخذ فى الارتفـــاع . وأمامه كانت أسطح المنـــزل ذات الطابق الواحد غائبة عن الأنظار تماما .

ـــ هنا . ارفعنى لأعلى .

أمسك مان بيد جندى أبيض وساعده فى جـــذب جنـــدى من الداخـــل وسمع الكولونيل يصـــيح :

ــ كل شيء معــد ؟

ــ نعــم يا سيدى .

ــ أرسل القوارب الى جــانب المستشفى فانا سنأخذها من السطح . فزأرت القوارب وجاءت ببطء الى جدار المستشفى .

ــ وهو كذلك . سندخلها للداخل .

وساعد « مان » امرأة بيضاء كانت تجاهد من الداخل . كانت ملتفة فى ملاءات وبطاطين . فلف الجندى الحبل حول جسد المرأة، وعاليــا حول ذراعيهــا . فأنت . يا الهى ، فــكر « مان » ، ان « لولو » فى أسفل الآن فى مكان ما . ميتة . لقد ذهبت قبــل أن تتركها فى الفيضان ..

ــ تعال ، يا زنجى ، ناولنى يدا .

ــ حاضر يا سيدى .

أمسك « مان » المرأة بقبضته ورفعها الى حافة الســطح . فصرخت وتراجعت للخلف .

ــ دعها تذهب .

فتركها وانزلها لأسفل بواسطة الحبل . فصرخت مرة ثانيــة وتعلقت وهى مهدلة فأعادوا الكرة ، وربطوا الحبــل ، ورفعوها لأعلى . كان وجهها يدمى ، فقد جرحت نفسها وهى تتسلق خلال الفجوة . كان « مان » يســتطيع سماع تنفس الجنــدى آتيــا

فى خفقات قصيرة كلما أخذ يعمل . وعندما امتلأ القارب بستة أشخاص زأر الموتور . وزحف قارب مزدحم — متباعدا ببطء . وكان الماء حينئذ ممتلئا بأشياء طافية . وكانت الأشياء تدور كالدوامة وهى تمر ، وتختفى عن النظر . وكان القارب الثانى ممتلئا . والثالث . ثم الرابع . والخامس . والسادس . وعندما ذهبت النساء والأطفال أخذوا يقللون من الرجال الباقين وسار العمل أسهل وأسرع مع الرجال ، وسمعهم « مان » يسبون بغضب وحينئذ تذكر « لولو » و « هيرت فيلد » وشعر بالدوار ، لكنه سيدفع نفسه وستمر الأزمة .

سأل جندى :

— كم تبقى ، يا كولونيل ؟

— حوالى الاثنى عشر . هل أحضرت قوارب كافية ؟

— كافية تماما .

وعرف « مان » بأنهم سيخرجون سالمين عندما رأى الكولونيل

يتسلق من الداخل . وجاء « برنكلى » أخيرا . فصاح جندى :

— هذا قارب زائد ، بلا سائق .

فقال « برنكلى » :

— هذا قاربى .

فقال الكولونيل :

— ثم تذهب بعد ذلك .

لف « مان » طرف الحبل حول مدخنة وربطه ، فأمسكه

« برنكلى » بقبضته وانزلق هابطا ، كالقرد . فتحرك الكولونيل نحو « مان » وامسك كتفه قائلا :

ـ لقد فعلت خيرا . لن انساك اذا خرجت من هذه المحنة ، تعال وزرنى ، هل تسمع ؟

ـ سمعا وطاعة يا سيدى .

ـ هنا ، خذ هذه .

وشعر « مان » بقطعة من الورق المبلل بين اصابعه . وحاول ان يقراها ، الا ان الظلام كان حالكا .

ـ هـذا عنوان امراة وطفلين يطلبون النجـدة ، ثم افعـل ما يمكنك . فاذا لم يمكنك حاول أن تحملهم الى التلال ..

ـ حاضر يا سيدى .

ونزل الكولونيل هابطا . وصار « مان » وحيـدا . وفى ثانية اعتراه احساس بمن سيقابل اذا نجا من الفيضـان . الا يكون من الافضل أن يبقى هنا وحيدا هكذا ويغرق فى التيار مع «لولو» ؟ الا يكون هذا افضل من الاستجواب لقتل رجل ابيض ؟

صاح « برنكلى » مناديا :

ـ تعـال ؟

فبحث « مان » فوق السطح عن الفأس ، ووجدها ووضعـها فى حزامه ووضع قصاصة الورق فى جيبه ، واطبق بقبضته على

الحبل ، وزحف الى الحافة فغمر المطر وجهه عندما ثبت قـــدمه فى جدران المنزل . وظل ساكنا لمدة دقيقة وحاول أن يرى القارب .

ـــ تعـــال .

فقفز على المقعد ، وتحرك القارب . سعل وتخلص من شعور بالضيق غمره لساعات . كان القارب يقلع ضد التيار .

قال « مان » ممسكا بقصاصة الورق أمام « برنكلى » :

ـــ هنا اناس يطلبون النجدة .

خذ المصـــباح الكهربى اليدوي . وركز الضوء على الورقـــة وأنظر اذا كنت سأستطيع قراءتها .

فأمسك « مان » بالمصباح الكهربى .

قال « برنكلى » :

ـــ انها فى طريـــق « بيك » انه مكتب البريد . انهـــا زوجـــة « هيرت فيلد » فحـــدق « مان » فى « برنكلى » ، فاغرا فاه ، وســـقط المصباح الكهربى فى قاع القـــارب وارتعدت اصـــابعه وأطارت الريح قصاصة الورق بعيـــدا .

ـــ « هيرت فيلد » ؟

قال « برنكلى » :

ـــ سأحاول أن ألبى طلبها .

وهدأ القارب من سرعته ودار ، وأتخذ الأتجاه العكسى ، مع التيار راقب « مان » الضوء الرئيسى يفرض ممرا وبسط المطر « هيرت فيلد ؟ » .

ـــ راقبـــه .

ألقى « مان » بيده فـــوق عينيه كأنما ليتحاشى ضربة . وترك « برنكلى » القارب جانبا على اليمين وأوقف المحرك . فحملهما التيار للخلف . وأمامهما أضـــاء النور الرئيسى دائرة صـــفراء من الخشب المبلل ، كاشفا جانبا من منزل . كان المنزل طافيـــا فى منتصف الشـــارع ، فدار المحرك ، وتحول القارب وســـارا فى الشارع ، عائدين ومارين من حيث أتيا . وبجانبهما كان المنزل طافيا ، يغوص ببطء ، ويبدو أكبر من حجمه . فتوقفا عند عمود تلغراف ونهض « مان » وأمسك بالقارب وربطه بسلك من أسلاك « الكابل » الواقفة فوق رأسه فى الظلام . كان كل ما حوله يبتعد مفرقا ، حافلا بالأمواج . ثم التقطت بقعة الضوء المنزل بأكمله ، كان يبدو كشىء حى ، وهو يغوص ببطء مبتلعا المـــاء والضجة ، وأبوابه ونوافذه ، وشرفته تدور فى النور ثم تذهب فى الظلام . ومر . ودار « برنكلى » بالقارب جوله وعادا الى الشارع بحذر هذه المرة ، محتفظين ببقائهما فى منتصف التيار . وضرب شىء . فنظرا . سقط كرسى وغرق بعيدا . ودارت أمامهما شجرة مقلوبة فأمسكا بها . وسمعا ضجيجا لكنهما لم يستطيعا تحديد مصدره ، وعنـــدما وصلا مرعى « باريت » تباطآ . وخف المطر واصـــبح بامكانهما الرؤية بوضوح .

سأل « برنكلى » ؟

— هل تظن اننا نستطيع أداء المهمة ؟

همس « مان » :

— لا أعرف .

واستدار حول منعطف ، واتجها الى طريق « بيك » . فكر في « هيرت فيلد » ورأى المراة ذات الشعر الأحمر واقفة في النافذة المضيئة . وسمع صراخها . هذا قاربنا ، يا هنرى . هذا قاربنا. تباطأ القارب متجها الى طريق « بيك » . كان لدى « مان » شعور بأنه في حلم :

— لنفترض انني اخبرت الصبي ؟ واندفع القارب ماضيا في الظلام . اذا أخذنا هذه المراة الى التلال فسيقبض على .

ورأى امامه صندوقا يطفو على الماء ثم يغوص ثانية :

— لكن ربما لم يروني جيدا ؟ لا يمكنني التأكد من ذلك . وقد كان الضوء مركزا عليه مدة طويلة عندما كان تحت هذه النافذة . وهم يعرفون اسمه ، فقد صاح به لهم مرتين ، يجب أن يخبر « برنكلى » . فانى أسود كما هو أسود . فلابد أنه سيكون راغبا في مساعدتي .. وحاول أن ينظر الى وجه « برنكلى » كان الصبي منحنيا ، محدقا بعينيه ، باحثا في سطح الماء الأسود !

— يا الهى ساخبره .

— أسرع القارب كأنه يهرب من شيء :

— ان حياتي هنا مرة ثانية .

انزلق القارب على سطح المـــاء . ابتلع « مان » لعابه ، ثم شعر بأنه لن تكون هناك أى فائدة فى الاعتراف ، فقد انتظر طويلا جدا . وحتى لو تحدث الآن فلن يدور « برنكلى » وبـ عود، فقـــد صارا على مسافة بعيدة جدا . وحدق بعينين مفتوحتين فى الظلمة المــائية . وسمع الصبى ينادى :

ــ يا زنجى . يا لقيط لا ، يا الهى . يجب أن أخبره .
مرة ثانية متفاديا شيئا طافيا . فكتم « مان » شـــعوره منتظرا وناظرا ، وأخذ القارب ينزلق فوق المــاء . ثم سعل وتمنى بكل حياته لو أنه ألقى بقصاصة الورق هذه بعيدا .

سأل « برنكلى » :

ــ هل تعرف المكان ؟

فهمس « مان » :

ــ أظن ذلك .

ونظر « مان » الى المنازل ، شاعرا انه لا يريد أن ينظر اليها، بل ينظر الى أى مكان . وكل ما أستطاع أن يراه من المنازل ذات الطابق الواحد هو أسطحها . كانت هناك فجوات واسعة بينها، وأزيل بعضـــها . لكن معظم المنازل ذات الطابقين كانت لا تزال قائمة . أدار (مان) عنقه ناظرا الى منزل « هيرت فيلد » ، وهو خائف من رؤيته .

قال « برنكلى » :

ــ انه هنا فى هذه المنطقة .

أدار « برنكلى » القارب جانبا وترك بقعة الضوء تلعب على واجهات المنـــازل ذات الطابقين ، وأراد « مان » أن يقول له : در وعـــد الى التلال لكنه نظر ، واختنق حلقه ، فنظر ممســـكا بجانبى القارب ، باحثا عن منزل زوجة « هيرت فيلد » ، ليراها بشعرها المتوهج فى النافذة المضيئة .

وأخيرا قال « برنكلى » :

ـــ ها هو هنـــاك .

لم يصدق « مان » فى أول الأمر أن هذا هو منزل زوجة «هيرت فيلد » كان الظلام سائدا . وكان يراقبه مربعا من الضوء الأصفر نافذتان مضيئتان والآن ، ها هو ذا المنزل مظلم بأكمله . ربما هم غير موجودين ؟ واندفعت أمنية حارة فى دمه ، أمنية بأنهم ذهبوا . ذهبوا فحسب الى أى مكان . طالمـــا لم يكونوا ليبحثوا عنه . وتمنى لو كانت أجســـادهم البيضاء قد أســـتقرت فى قاع المياه الســـوداء . كانا الآن على بعد عشر أقدام من المنزل ، فهـــدأ القارب من سرعته .

وهمس « مان » :

ـــ ربما هم غير موجودين .

فقال « برنكلى » :

ـــ من الأفضل أن ننادى .

وضم « برنكلى » يده حول فمه وصاح :

يا سيدة « هيرت فيلد » .

وانتظرا ، ينصتان ، ينظران فى الظلام الى النوافذ المغلقة . ولابد أن « برنكلى » ظن أن صوته لم يصل لأنه نادى مرة ثانية :

ــ يا سيدة « هيرت فيلد » .

فهمس « مان » :

ــ ليسوا هنــاك .

وتنفس برنكلى قائلا :

أنظر . هناك أحد . أنظر ؟ انظر .

كانت النافذة مفتوحة ، فركز « برنكلى » بقعة الضـــوء عليها ، وجاءت رأس حمراء داخلها . فجلس « مان » بشفتين مفغورتين، واستدار الى جانب القارب ، وانتظر أن تنـــادى زوجة « هيرت فيلد » : هنرى . هنرى . ونادى « برنكلى » مرة ثانية :

ــ يا سيدة « هيرت فيلد » .

لكنها كانت تنـــادى :

ــ هل يمكنك أن تحملنا ؟ هل تستطيع ان تحملنا ؟

ــ نحن قادمان . انتظرى ...

وقطع صوته ضجة كبيرة . كانت طويلة هائلة كصوت سقوط الاشجار فى العاصفة . وأعاد الجزر القارب الى الخلف . فسمع « مان » زوجـــة « هيرت فيلد » تصرخ . ولم يعـــد يستطيع أن يرى المنـــزل الآن ، وأضاءت بقعة الضـــوء ممرا فى المـــاء المظلم. فأدار « برنكلى » المحـــرك ودار بالقـــارب حـــوله ، موجهـــا الضوء مرة ثانية الى النافذة . كانت خاليـــة . كانت هنـــاك صرخة أخرى ، لكنها كانت مختلفة .

« قال « برنكلى » :

— لقــد أدركهم المـــاء .

وتحرك القـــارب للمرة الثانية الى منتصف التيـــار . وكـــان الضوء على النـــافذة الخالية . وكان المنزل يتحرك هابطا فى الطريق . فكتم « مان » تنفسه شاعرا بنفسه يمر بمرحلة سوداء. ووصل المنزل الى منتصف الطريق ودار بعنف . وظفا بعيـــدا عنهما ، وأحـــدث ثورة فى المـــاء وأصواتا صاخبة . ودار مهتزا فى هوة ترتعد ، ثم مال بعنف الى اليســـار وتحطم ، ملقيـــا بنفسه بين اثنين من المنـــازل الصغيرة . وسمع « مان » الموتور يدور ، كان ينزلـــق ببطء فوق المـــاء ، ذاهبا نحو المنزل .

وسأل « برنكلى » :

— هل تعتقد انك تستطيع ان تقـــوم بهـــذا ؟ هل تعتقد أننـــا يمكننا انقاذهم ؟

فلم يجب « مان » وضارا مرة ثانيـــة على بعد عشرة اقـــدام من المنزل . كان التيـــار يندفـــع خـــلال الشقوق محدثا زئيرا راعدا . ومالت الجـــدران الخارجية بزاوية قدرها ثلاثون درجة. وقاد « برنكلى » القـــارب تحت النافذة مبـــاشرة واوقفه ثابتـــا بربطه فى عمود من الخشب . وجلس « مان » متجمدا ، محدقا : وفى عقله رأى زوجـــة « هيرت فيلد » ، وقطـــع شىء ما عنقه ، ورأى شعرها الاحمر ، ورأى وجهها الابيض ، ثم سمع «برنكلى» يتحدث :

— سأمسك القارب وأحاول ان ادخل من النافذة .

وعندما كانت زوجه جالسة خارج كبائنه تراقبه ، شعر «مان» بنفسه ينهض واقفا . ورأى الايدى تصل الى حافة النافذة .

— هل تستطيع أن تفعل ذلك ؟ خذ .. هذا المصباح الكهربى اليدوى .

وضع « مان » المصباح الكهربى فى جيبه ووصل مرة ثانية . فلم يستطع ان يفعل ذلك . فظل واقفا على حافة القارب ، سامعا تدفق الماء تحته . وارتعدت ساقاه ، ورفع ذراعيه لأعلى .

— هل يمكنك أن تفعلها ؟

لا ..

واستراح لحظة ، ناظرا الى النافذة ، مفكرا كيف يستطيع ان يصل ، ثم تناول الفأس من حزامه ووجهه الى النافذة ، وامسك بقبضة الفأس وضربه فى النافذة .فدخل حد الفأس فى النافذة . وتعلق بثقله بالفأس . فحمله . وصعد الى النافذة وجلس على أرض الغرفة . ووقف لحظة فى الظلام المغرق ، وكان هناك شىء يمر على سطح جسمه كله ، كان البرد يحدثه جلد مبلل ، فأخرج المصباح الكهربى اليدوى من جيبه ووجهه الى الارض . وحاول ان ينادى زوجة « هيرت فيلد » لكنه لم يستطع. فتفحص مكان الضوء ، ورأى كرسيا محطما ، وسجادة مطوية، وملابس متناثرة ، ودولابا مكسورا ، وسريرا مقلوبا ، ثم دائرة من الشعر الاحمر وطفلين أبيضين . كانت عيناها مغمضتين . وراس ابنتها الصغيرة ترقد على فخذها . وابنها الصغير جالس بجانبها على الارض مغمض العينين فى الضوء .

وصاح بعنف :

— خذ امي .

فهز الصوت « مان » وتصلب . فقد كان نفس الصوت الذى سمعه من قبل قائلا : انت يا زنجى . انت لقيط . وعاوده نفس الخوف الهائل الذى غمره عندما كان يجدف ضد التيار .

وأراد أن يجرى من الحجرة ويخبر « برنكلى » بأنه لم يستطع العثور على أحد ، وأراد أن يتركهم هنا لتبتلعهم المياه السوداء .

— خذ امى . خذ امى .

رأى « مان » أصابع الطفل ترتعد ، واشتعل عود ثقاب . واتسعت عينا الطفل . وتحرك فكه لأعلى ولأسفل . وانطفأت الشعلة . وصرخ الطفل :

— انه الزنجى . انه الزنجى !

فأمسك « مان » الفأس . واقترب ، محدقا فى الطفل ، وممسكا الفأس بعنف فى قبضة يده اليمنى . وأخذ شىء صلب يضغط رأسه من الخلف ورآه بأكمله فى ومضة عندما كان يحدق فى وجه الصبى الأبيض ويسمعه يصرخ :

— « انه الزنجى » .

— نعم ، الآن ، لو أمكنه أن يستعمل الفأس فلن يبلغوا عنه وسيغمرهم مياه الفيضان الأسود الى الأبد ويمكنه أن يخبر « برنكلى » بأنه لم يستطع العثور عليهم ولن يعرف البيض أبدا أنه قد قتل رجلا أبيض ... وارتعد جسمه باضطراب نعم ، بامكانه الآن أن يضرب رؤوسهم بهذه الفأس ، ولن يقولوا أى شىء أبدا . ما دامت معه بندقيته ، فاذا وجدهم «برنكلى» فسيصوب البندقية الى رأس « برنكلى » ، ورأى نفسه فى القارب مع « برنكلى » ، ورأى نفسه يصوب البندقية الى « برنكلى » ، ورأى نفسه فى القارب يبتعد ، ورأى نفسه فى القارب ، وحيدا .

يسير مبتعدا وتحركت عضلاته وصار الفأس فوق رأســـه وسمع الصبى الأبيض يصرخ :

ــ « انه الزنجى . انه الزنجى » .

ثم شعر بنفسه مرفوعا لأعلى بعنف ويتعلـــق دائرا حوله كأنمـــا بقوة من الارض ذاتهـــا ووجهه يطير فى بقعة ســـوداء . ومـــلأ أذنيه ضجيج صارخ ، واهتز جسده دائرا ودائرا ورأى المصباح الكهربى اليـــدوى لحظة ، الواحدة تدور ، ثم رقـــد منبسطا ، مذهولا ، ودار حـــوله ، ونهض على ركبتيه مذهولا ، دهشـــا ، مصدوما . وزحف الى المصباح الكهربى والتقطه بأصابع مرتعشة وهمس صوت فى اذنيه مرة بعد مرة . يجب أن أخـــرج بعيدا عن هنا .. وشعر بأنه مأزق . فنهض على قدميه وأمسك بجدار . وسمع صوت المـــاء المندفع ونشر الضوء الاصفر . كانت زوجـــة « هيرت فيلد » راقدة أرضا على وجهها على شـــكل « ٧ » علـــى يمينه ، حيث تلتقى الارض بالحائط . وكان الصبى يزحـــف فى الظـــلام ، صائحا بصوت خافت : أمى . أمى ورأى « مان » الفأس لكنه بدا كأنه لن يستعملها . فهـــو يعلم ما حـــدث الآن فقـــد غاص المنزل ، غاص فى المـــاء الاسود المتدفق . ورأى نفسه كما وقف لحظة من قبـــل ، رأى نفسه واقفـــا بالفأس مرفوعا لأعلى فوق زوجة « هيرت فيلد » وطفليها ...

ــ هل وجدتهم ؟ قل : هل وجدتهم ؟

فدار « مان » برأسه مرتعدا . كان « برنكلى » ينادى . وملأ البرد جسده « مان » وحول البقعة المضيئة الى الشباك ورأى وجها أسود وبجانب الوجه ممر من الضوء منطلق على ســـطح المـــاء . لا .. لا .. لا يســـتطيع أن يقتل الآن ، لا يســـتطيع أن يقتل ، اذا كان أحد ينظر . ثم سعل ، بثقل كأنما يلفظ نفسه الأخير ، كأنما يترك العالم .

كان « برنكلى » يتسابق الى النافذة ، وظل ينادى :

تعال . ساعدنى فى الدخول . فالقارب عند النافذة . تعال فيمكننى أن أساعدك فى حملهم الى الخارج .

فتحرك « مان » كشخص مخدر نحو الصبى الأبيض وامسك بذراعه . فارتعد الصبى وصرخ :

— أتركنى وحدى أيها الزنجى .

وقف « مان » فوقه ، وكتفاه مرتفعتان ، وشفتاه تتحركان . وغمغم :

— تعال الى القارب .

فحدق الصبى ، ثم بدا أنه يفهم .

— خذ أمى . . .

وكطفل صغير أطاعه « مان » وسحب زوجة « هيرت فيلد » الى النافذة . ورأى يدين بيضاوين تساعدانه .

— أحضر أختى .

فأحضر البنت الصغيرة بعدئذ . ثم ذهب الصبى . وتسلق « مان » خارجا فى النهاية .

عاد مرة ثانية الى القارب ، بجانب « برنكلى » وكانت زوجة « هيرت فيلد » وطفلاها فى المؤخرة . والطفلة الصغيرة تصيح متناومة . واهتز القارب . فنظر « مان » الى المنزل ، كان يغوص هابطا فى الماء ، وكانت النافذة التى خرجوا منها منذ لحظة على بعد قدم من مستوى التيار الثائر . ودار المحرك ، لكن هديره اليه من مكان بعيد ، من أعماق صمت ثقيل من اعماق زمن ، بعد ممعن فى القدم . وانزلق القارب فوق الماء وكان هو بداخله

لكنه كان قاربا بعيدا ، وكان شخص آخر فى ذلك القارب ، لا هو وراى الضوء يسير مباشرة فى الظلام وشعر باندفاع القارب عندما شق المساء . لكن لم يمسسه اى شىء من هذه الصور المرئية ، فقد مرت ببساطة أمام عينيه كأشباح متحركة صامتة ، كأشباح ولكنة فى حلم مريض . ولم يشعر بشىء ، فجلس وهو ينظر دون أن يرى شيئا .

قال « برنكلى » :

ـ لقد أتممت العمل بصعوبة .

فنظر الى « برنكلى » كأنما هو دهش من أن يرى أحدا بجانبه .

قال « برنكلى » :

ـ اعتقدت انك فقدت عندما غاص هذا المنزل !

كان القارب فى العراء الآن ، ينطلق ضد التيار . وقد توقف المطر .

قال « برنكلى » :

ـ لقد صرنا فى ضوء النهار .

كانت الظلمة تتحول الى ضوء خفيف .

ـ أمى .. أمى ..

فهمست زوجة « هيرت فيلد » :

ـ اسكت .

نعم ، و « مان » يعرف انهم كانوا بجانبه . انه يشعر بهم فى كل جسمه ، واحس على الأخص وكأن شيئا صلبا باردا يضغط

على رأسه ، يضغط بثقل لدرجة انه يمحو كل شىء ما عدا فكرة صعبة محكمة تتملكه :

ــ لقد أمسكوا بى الآن !

قال برنكلى :

ــ هذه هى التلال .

كانت المراعى الخضراء ترقـد أمامه فى أحواض العشب . وانتشر القارب عليها وشاهد الخطوط العريضة التى تكون الخيام . والدخان يتصاعد لأعلى والجنود يتحركون . ومن أعماق جسده المتعب صعدت صلاة « صلاة صامتة » :

ــ يا الهى ، انقذنى الآن . انقذنى الآن ..

ــ ٦ ــ

كان ضوء النهار ينتشر . وقد توقف القارب . وتوقف الموتور وعندما لم يعد « مان » يشعر بالاقتراب أو يسمع الطنين فقـد غمرته حالة عصبية .

قال « برنكلى » :

ــ حسنا ، لقد وصلنا هنا .

وبخوف شاهد « مان » الجنود يجرون هابطين الى المنحدرات وشعر بالجالسين بجواره ، شعر بعيونهم على ظهره ، ورأسه. وعرف أن الصبى الأبيض الموجـود فى الخلف كان يكرهه لدرجة الموت لقتله أباه . وعرف أن الصبى الأبيض على وشك أن يصرخ:

ــ أنت يا زنجى . أنت يا لقيط .

واقترب الجنـود فأمسك « مان » بجانب القارب ، كان « برنكلى » يتسلق خارجا منه . قال « برنكلى » :

تعـــال .

نهض « مان » واقفا ، ومضطربنا قليلا . وفكر :

ــ لقد أمسكو بى الآن .

وقفز على أرض جافة . وخطا خطوة وامسك بفرع شجرة . ونظر حوله وحاول أن يصارع شـــعورا بالضياع . كانت زوجة « هيرت فيلد » تصيح ، قال احد الجنود :

ــ هنا ، خذى هذه البطانية « يا مسز هيرت فيلد » .

سار « مان » راسا نحوهم ، منتظرا ان يسمع فى اثناء سيره الكلمة التى ستوقفه . كانت الفراشـــة ترقد أمام عينيه بجمود غريب . كانت كصورة يجب أن تتحطم وواصل الســـير بطريقة عمياء . ووصل الى مســـتوى الأرض ومر بأناس بيض حملقوا بتعجب . واراد أن ينظر حوله ، لكنه لم يستطع ان يحول راسه وبدا جسمه داخلا فى ثوب محكم ، فى تابوت يتحرك كلما تحرك هو . وفكر فيما اذا كان الصبى الأبيض يخبر الجنود الآن . وكان مسرورا عندما وصل الى الخيام . فعلى الأقل ستحميه الخيـــام من أن يروه .

ــ هاى ، أنت . قف عندك .

فكتم تنفســـه ، وهو يدور ببطء . وســـار جندى أبيض نحوه حاملا بندقيته يا الهى ، هذا هو ...

ــ حسنا ، يمكنك الآن أن تخلع هذا .

ــ ســـيدى ؟

ــ انى أقول يمكنك الآن ان تخلع هذا .

ــ سيدى ؟ سيدى ؟

— أخلع هذا الحذاء وهذا المعطف الواقى من المطر ؟

— حاضر ياسيدى .

— وخلع المعطف الواقى من المطر . كان يرتعد . واخرج احدى رجليه الى أقصى ما يستطيع اخراجها من الحذاء ، ثم وقف على ركبته اليمنى وأخذ يخلع حذاءه من الرجل اليسرى ، ثم انحنى على ركبته اليسرى بينما أخذ يخلع الحذاء من الرجل اليمنى .

— طوح بها هناك فى تلك الخيمة .

— حاضر يا سيدى .

واستمر فى السير مرة ثانية شاعرا بعينى الجندى على ظهره وأمامه عبر مربع من الحشائش ظهرت جماعة السود جماعته . فأسرع فى خطوته وأخذ يحدث نفسه :

— ربما أستطعت العثور على بوب فهنا الدر مورى .. يا الهى انى أفكر فيما حدث من بيوى ؟ وجرينى ؟

وفكر فى لولو وعيناه ملتهبتان وشق طريقه بمنكبيه وسط حشد من الرجال السود متجمعين حول مطبخ خاص بخيمة وسعل وخيل اليه أن وزنه يخف . ونظر فى الوجوه السود نظرة الأمل ، عليه أن يبتعد من هنا قبل أن يدفع هذا الصبى الأبيض الجنود ليجروه على الأرض . وفكر فى القوارب البيضاء التى رآها مربوطة عند حافة الماء .

— يا الهى لو أستطيع دخول احدها .

— هل لك فى بعض القهوة ؟

كانت امرأة سوداء صغيرة تقف امامه ممسكة بقدح صغير من القهوة . وشم البخار يتصاعد منه .

سألت المرأة مرة ثانية :

ـ هل شربت قهوتك بعد ؟ فليس هنا من شيء سوى القهوة.

ـ لا يا سيدتى .

ـ خذ هنـا .

فتناول القدح المقدم اليه ووقف يرقب البخار المتصاعد منه . ودارت لتسير مبتعدة .

ـ يا سيدتى . هل رأيت رجلا باسم بوب كوب ؟

ـ الله وحده يعلم يا سيدى فاننا لا نعرف من هنا ومن ليس هنا . لمـاذا لم تذهب الى محطة مستشفى الصليب الأحمر ؟ فهناك يوقع كل شخص باسمه .

لا . انه لا يستطيع الذهاب الى الصليب الأحمر . فسيمسكون به هناك بالتأكيد وسار خطوات قليلة بعد أن أحتسى قدح القهوة مراقبا الوجوه البيضـاء من فوق حافة قدحه . ثم شـعر فجأة بالاضطراب كأنما كل الذى حدث منذ اربع ساعات لم يكن سوى حلم . انه ليس فى حاجة ليكون خائفا الآن . هـل هو فى حاجة لذلك ؟ ومجرد تخيله ان كل ذلك كان حلما جعله يشعر بتحسن .

ـ يا الهى انى متعب بالتأكيد .

وانتهى من احتسـاء قدح القهوة ثم نظر الى الخيمة . كانت الحرارة تنتشر فى معدته . نظر حوله مرة ثانية . لم تكن هنـاك وجوه بيضاء ووقف الرجال السود يأكلون ويتحدثون وود منهـم أن يساعدوه .. وسار وقدم قدحه طالبا عونا آخـر . وحدقت المرأة السوداء وعيناها تنظران الى ما وراءه بخوف . وسـمعها تطلق صرخة قصيرة حادة . ثم دفع بعنف من الخلف . وسـمع

صوت الصفيح الناعم عندما أنزلق القدح من بين أصابعه . وضربت مؤخرة رأسه فى الطين .

— هل هو هذا الزنجى ؟

— نعم انه هو . هو الزنجى .

كان ملقى على ظهره ونظر لأعلى فى وجوه اربعة جنود بيض . وأطراف البنادق مصوبة الى صدره . وكان الصبى الأبيض واقفا ومشيرا الى وجهه .

— هذا هو الزنجى الذى قتل ابى .

فأمسكوا بذراعيه واوقفوه على قدميه . نظر اليهم وهو منحن من جانب عينيه . ويداه تحملان رأسه .

— أرفع يديك يا زنجى .

فأمتثل للأمر .

— تحرك وسر .

فسار ببطء وبؤس ويداه مرتفعتان عاليا فى الهواء . وكان أمامه جنديان يقودانه الى الطريق . وشعر بشىء مدبب فى سلسلته الفقرية .

— امض يا زنجى ولا تدر حولك .

وذهبوا به بين الخيام . وسار للأمام وهو يسمع حذاءه وأحذية الجنود تضرب فى الطين وسمع خطوات الصبى الأبيض السريعة على مسافة قليلة منهم . كانت الوجوه السوداء التى مر بها ملتهبة ينظر كل منها فى وجه الاخر وسمع حديثا هامسا . منذ لحظة كان بين هذه الوجوه السوداء التى أصابها الذهول الناظرة فى صمت وفزع الى البيض وهم يأخذون رجلا أسود

مســكينا بعيــدا عنهم . لم لا يســاعدونى ؟ انه ليعلم بأنهــم لن يســاعدوه وليس بامكانهم أن يســاعدوه تماما كما كان هو فى أوقات ماضــية غير قادر على مساعدة رجال سود أخــذهم البيض ليلقوا حتفهم .. ثم عاد مرة ثانية بين الجنود شاعرا بحدة طرف السلاح فى سلسلته الفقرية . واقتيد عبر مربع العشــب الذى يفصل خيام البيض عن السود ولم تعد هناك الآن ســوى وجوه بيضاء . انه يجذب أنفاسه بصعوبة .

— أنظر لقد أمسكوا عبدا .

— تعال لقد أحضروا زنجيا .

كان مدفوعا بين الجنود . وكانت كل خطوة يتقدمها يشــعر بمسدسه يتحرك بخنة على فخده . ودارت فــكرة وظلت تدور فى عقله . وأطبقت على عقله باحــكام كلما فكر فيها . انهــم سيقتلوننى .. سيقتلوننى ..

— الى هذا الطريق .

فاستدار . كانت خلفه أصوات . وأدرك أن جمهرة من الناس تحتشــد . ورأى زوجة هيرت فيلد تنظر اليه ورأى شــعرها الأحمر وتوقف الجنود أمامها . فخفض بصره الى الأرض .

— هل هو هذا الزنجى يا مسز هيرت فيلد ؟

— نعم انه هو .

والتفت حوله ووجوه بيضاء كثيرة . والتهب شعور الجمــع ولوحوا أمام عينيه . كانت هنــاك همهمة مرتفعة من الحــديث ثم لم يستطع التحرك . وكانوا يضغطون عليه .

— ما الذى فعله ؟

— هل ضايق امرأة بيضاء ؟

ـ تقول انه فعل شيئا .

فسمع الجنود يحتجون .

ـ أرجعوا للخلف الآن ارجعوا للخلف .

ازداد الجمع تطويقا له . ووقف الجنود يحيطون به . واصبحين فاصلا بينه وبين الوجوه الملتهفة . فأمسك بجندى يدفع الذين اجتمعوا ويريدون ان يفتكوا به وقد صرخوا فى أذنيه :

ـ اقتلوه .

ـ اقتلوا اللقيط الأسود .

فقاومهم الجنود صائحين :

ـ عودوا الى الخلف . لن تتمكنوا من فعل ذلك .

ـ دعونا نقتاله .

وانتشلت قدماه من دائرة محكمة من الوجوه الشاحبة وأصابت وجهه ضربة . وثار الجمع قليلا . وسقط بين الأربعة . وشعر بألم حاد فى فخذه فعرف أنه ركل ، ومن أركان عينيه رأى طابوراً من الأقدام والسيقان .

ـ اقتلوا ابن الكلبة .

ـ ارجعوا للخلف . ارجعوا للخلف . والا سنطلق عليكم الرصاص . ابتعدوا عنه الآن وتدفق الدم من فمه .

يقول الجنرال ، احضروه الى خيمتى .
فانتشل لأعلى ورفعوا به داخل خيمة . وامسك جنديان بذراعه. ونظر اليه وجه أحمر بجوار المائدة . ورأى زوجة هيرت فيلد وابنها وابنتها الصغيرة . وسمع خليطا من الاصوات .

ـــ ارجع هؤلاء النــاس بعيــداً عن هذه الخيمة .
ـــ حاضر يا سيدى .

وصار الوضع هادئاً . وشعر بدوار فأمسك ركبتيه ليمنعهما من السقوط . كان الجنــود يهزونه وشعر بالدم الساخن يغمــر يديــه .

ـــ ألا تستطيع أن تتكلم . أيهــا اللقيط الاسود . ألا تستطيع أن تتكلم .

ـــ حاضر يا سيدى .

ـــ ما اســمك ؟

ـــ مان يا ســيدى .

ـــ ما التهمة الموجهــة الى الزنجى ؟

ـــ السرقة والقتل يا جنرال .

ـــ ومن قتــل ؟

ـــ هيرت فيلد رئيس مكتب البريد يا سيدى .

ـــ هيرت فيلد ؟

ـــ نعم يا ســـيدى .

فقــال الغــلام :

ـــ لقد سرق قاربنا وقتل والدى .

ـــ هل تعترف بذلك يا زنجى ؟

ـــ كلابتن . لقد اطلق على الرصاص قبل أن اطلقه عليه . لقــد اطلــق على ....

ـــ لقد سرق قاربنا . سرق قاربنا وقتل أبى عندما طلب اليــه أن يعيده .

ـــ هل انت متأكد انه هذا الرجل ؟

ـــ انه هو يا جنرال واسمه مان وقد رأيتــه تحت نافذتنا .

— متى كان ذلك ؟
— فى الليلة الاخيرة عند مكتب البريد .
— من رأى ذلك ؟
فقالت زوجـــة هيرت فيلد :
— رأيتـــه أنـــا .
وقـــال الغـــلام :
— أنا رأيتـــه :
— لم أسرق هذا القـــارب يا كابتن . انى أقسم بالله بأنى لم أفعل .
— لقد فعلت . لقـــد سرقت قاربنا وقتلت أبى وتركتنا فى الفيضـــان .
وجرى الصبى الى مان فأعاده الجنود الى الخلف .
ونادته زوجـــة هيرت فيلد :
— رالف تعـــال هنا .
قـــال جنـــدى :
— اسكت يا صغير فاننا نستطيع القيام بهذا .
وسأله الجنـــرال :
— هل كان معك هذا القارب يا زنجى ؟
— نعم يا سيدى . لكن ..
— من أين أحضرته ؟
فلم يجـــب .
— ماذا فعلت بالقـــارب ؟
— أخذه الرجل فى المستشفى . لكنى لم أسرقه يا كابتن .
فأمر الجنـــرال :
— أحضر الكولونيل دافيس .
— حاضر يا ســـيدى .
— يا زنجى الا تعرف معنى هذا ؟
ففتح مان فمه دون أن يتفوه بكلمة .

ـــ هل تعـــرف أن هذا يعنى حيـــاتك ؟

ـــ لم أقصد أن أقتله كنت أحمل زوجتى الى المستشفى ..

ـــ ماذا فعلت بالمسدس ؟

فلم يجب للمرة الثانية . كانت لديه رغبة عنيفة فى أن يخـــرج المسدس ويطلق الرصاص ، اطلاقا أعمى . ليطلق الرصـــاص ويقتـــل فيما هو يفعل ذلك . لكن قبـــل أن ينفذ رغبتـــه أوقفه صـــوت .

ـــ فتشـــوه .

فوجـــدوا المسدس ووضعوه على المـــائدة . كانت هنـــاك محادثة ثائرة . ورأى بعض الايدى البيضـــاء تلتقط المســـدس وتفتحه فخرجت أربـــع رصاصات فارغة .

فقـــال الصبى :

ـــ لقـــد اطلق طلقتين على والدى . أطلـــق عليه مرتين .

ـــ هل ضايقك يا مسز هيرت فيلد ؟

ـــ لا ليس بهذه الطريقـــة .

ـــ والبنت الصغيرة ؟

ـــ لا لكنه عاد الى المنـــزل وأخرجنـــا منـــه . ويقول رالف انه يحمل فأسا .

ـــ متى كان ذلك ؟

ـــ مبكرا فى صباح اليـــوم .

ـــ لمـــاذا عدت الى هنـــاك يا زنجى ؟

فلم يجـــب .

— هل ضايقك الذن يا مستر هيرت فيلد ؟

فقـــال الصبى :

كان على وشك ان يقتلنا . كان ممسكا بالفأس فوقنا ثم غاص المنـــزل فى الفيضـــان . .

كانت هناك محادثة اخرى صاخبة .

حضر الكولونيل دافيس يا جنـــرال .

— هل تعرف هذا الزنجى يا كلولونيل ؟

فنظر مان الى الارض وضرب جنـــدي رأسه .

— كان فى المستشفى .

ما الذى كان يفعله هنـــاك ؟

— ساعدنا فى فتـــح السطح .

— هل كان معـــه القـــارب ؟

— نعم لكننا أخذناه وارسلناه الى الجسر . وهنا هـــو ذا قـــد وقـــع علـــى هذه .

— ما نوع هـــذا القـــارب ؟

— قارب تجـــديف ابيض .

فقـــال الغـــلام :

— كان هذا قاربنا .

وتحركت قصاصة الورق التى وقعها مان فى المستشفى تحت عينيـــه .

— هل وقعت هذه يا زنجى ؟

فابتلع لعـــابه ولم يجب .

وجرى قلم على ورقـــة .

ـ خذه الى الخـــارج .

ـ ايهـــا البيض المتحونا الرحمة لم اقصد إن اقتله.انى أقسم بالله انى لم افعل .. فقـــد اطلق على الرصاص . كنت أحمل زوجتى الى المستشفى .

ـ خذوه الى الخـــارج .

فسقط على الارض وهو يصـــيح :

ـ لم اقصد ان اقتله لم اقصد ..

ـ متى سينفذ يا جنرال ؟

ـ خذوه الى الخارج الآن ، من التالى ؟

فسحبوه الى خارج الخيمة . وتدحـــرج فى الوحـــل ، فركله جنـــدى .

ـ انهض وسر يا زنجى فلم تمت بعد .

وسار كالاعمى وظهره منحن وفمه يقطر دما . وذراعاه قـــد افتقـــدا الاحساس . كان هناك اربعـــة منهم وكان يسير بينهم وملأت الدموع عينيه . وتحت المنحدر على يمينه كان بحـــر يمتـــد ويتماوج من الميـــاه البراقـــة ملتقيا من بعيـــد بالسماء الراعدة. وكانت هناك قوارب . قوارب بيضـــاء قوارب حـــرة . تسير وتقفز كالسمك . كانت هناك قوارب ، وكـــل من فيها يريدون قتله ، كانت الشمس ساطعة تصب اشعة صفراء فى عينيـــه . وســـار جنـــديان امامه . وسمع اثنين خلفـــه . كان يسير بينهم والشمس تلقى اشـــعة صفراء فى عينيه انهم ذاهبون لاغتيالى انهم ذاهبون .. وارتعدت ركبتـــاه وسقط بوجهـــه على الارض ، وبدا للحظة كأنه لا يتنفس . ثم صاح بـــكل قوة فى صدره :

ـ يا الهى لا تدعهم يقتلونى . أوقفهم عن قتل السود .

ـ انهض وامش يا زنجى .

— لم أقصد أن افعل ذلك أقسم بالله بأنى لم اقصد .
فانتشلوه لأعلى لكنه انزلق الى الوحل مرة ثانية .
— ما الذى سنفعله بهذ اللقيط الاسود ؟
— سيكون علينا أن نحمله .
— ستحل على اللعنة اذا حملته .

أمسك أحدهم بذراع مان الايمن ولفه حول ظهره .
فصـرخ :
— يا رب . يا رب . امنحنى الرحمـة .
— هل تظن ان بامكانك الآن النهوض والسير يا زنجى ؟

وتحامل على نفسه ، وتعثر فى سيره ، وقد تصلبت اوصـاله من الالم ، صـاروا الان بين الاشـجار . وراحـوا يصعدون منحدرا . ومن خـلال الدموع راى الخيام القائمة فى معسـكر الجنـود .

— يا الهى امتحنى الرحمة ! انه لن يصل الى هنـاك حتى يموت . هناك ثم تكون النهاية يا اله الرحمة ..
— اخـرج سـيجارة يا شارلى ؟
— حاضر .

وأضاءت شعلة ضئيلة وسـط أشعة الشـمس الصـفراء المضيئة . وطار عود ثقـاب أمام عينيه وضرب تموجات العشب الاخضر الرطب . وتحـول خوفه الى برودة قاتلة للحس . نعم الآن . داخـل الاشـجار ؟ نعـم داخل هذه الاشـجار . يا الهى انهم ذاهبون لقتله . نعـم . الآن.سيموت . سيموت قبل أن يدعهم يقتلونه . سأموت اذا قتلونى . سأموت .. وجرى رأسا الى اليمين . خـلال الاشجار فى اتجاه الماء وسمع طلقة.

— يا ابن الكلبة .

فجرى بين الاشـجار فوق الارض المبللة . منصبتا وهو يجرى لطلقات البنادق الحربية . وغاص حذاؤه فى امواج من العشـب الاخضر . ثم جاءت طلقـة . سمعها تضرب فى مكان ما . ومرت أخرى بجوار رأسه . وشعر بأنه لم يكن يجـرى بسرعة كافية فحبس انفاسه ، وجرى ، وجرى . وترك الاشـجار الغائمـة وجرى فوق امواج العشب الخضراء المكشوفة . وحـدق سامعا لعلعة البنـادق الحربية . وانثنت ركبته اليمنى وسقط زاحفـا على الارض . لكنه تحمل ناهضا على أطرافـه والتقطت عينـاه لمحـة من المـاء اللامـع والقوارب البيضـاء الصائحة . ثـم أصيب مرة ثانيـة فى الكتف وظل يزحف الى حـافة المنحـدر واصابت الرصاصات جانبه وظهره ورأسه . وسـقط علـى الارض وغاب فى العشب الأخضر الندى . وسمع وقـع الأقدام يضعف . وشعر بشىء حـار يتدفـق فى حلقـه ، وسـعل . ثم شعر فجـأة بأنه لم يعد يستطيع أن يسمع .

ووقف الجنود من فوقه . قـال احد الجنود :

— لن تجرى بعدئذ ، يا زنجى لن تجرى عليك اللعنـة . لن تجـرى بعد ذلك ..

ووقف أحـد الجنـود ودفـع ظهر بندقيته تحـت الجسـد ورفعه لأعلى . فتدحرج فى ثقـل هابطا المنحدر الندى ، وتوقف على بعـد قـدم من حافة المـاء . وتقلبت كف سوداء تتراخى على وجهها وظهرها منسحبة فى التيـار الداكن ..

كتب المترجـم

(١) **مع الفلاحين** ، ترجمة عن مكسيم جوركى
الطبعـة الأولى ، دار الفكر العـربى ، القاهرة ١٩٥٧
الطبعة الثانية ، دار الجيل ، بيروت ١٩٧٧

(٢) **دفاع عن الزنوج** ، الدار القومية ، القاهرة ١٩٦٥

(٣) **حريق القاهرة أو نذير العاصفة** ، الدار القوميـة ، القاهرة ١٩٦٦

(٤) **مكسيم جوركى — حياته وأدبه** — الدار القومية ، القـاهرة ١٩٦٦

(٥) **مع نجيب محفوظ** ، الطبعة الاولى ، وزارة الثقافة السورية، دمشق ١٩٧١
الطبعة الثانية ، دار الجيـل ، بيروت ١٩٧٧

(٦) **فى الأدب الليبى الحديث** ، دار الكتاب العـربى ، طرابلس الغرب ١٩٧٣

(٧) **الالتزام والثورة فى الأدب العربى الحديث** ، دار العودة ، بيروت ١٩٧٤

(٨) **أدب المعـركة** ، دار الجيل ، بيروت ١٩٧٤

(٩) **البطل الثورى فى الرواية العربية الحديثة** ، وزارة الثقـافة السورية دمشق ١٩٧٧

(١٠) **فن الرجل الصغير فى القصة العربيـة القصيرة** ، اتحـاد الكتاب العربى ، دمشق ١٩٧٨

(١١) **توفيق الحكيم اللامنتمى** ، دراسة فى فكر الحكيم السياسى ، دار الموقف العربى ، القاهرة ١٩٧٩

(١٢) **أدب أكتـوبر** ، دار آتون ، القاهرة ١٩٨٠

(١٣) **أضواء جديدة على الثقافة العربية** ، دار رع ، القـاهرة ١٩٨٠

تحت الطبـع :

(١) أدب البحـر .
(٢) الرواية السـياسية .
(٣) نحـو ثقـافة عربية أصيلة .

مشهد من الجنوب الامريكى

« خارج المزارع والمستنقعات ، فى اعماق الجنوب ، تأتى هـــذه القصص الدامية لنضال الزنوج السلمى ضـــد خشونة ووحشية عالم ابيض حقود .

هؤلاء رجال ونساء بسطاء ، ولدوا فى خوف وشبوا فى رعب . هذه حياتهم التى عرفها ريتشارد رايت بنفسه . وقد فر بعيدا عنها . لكن كل ما سمعه أو رآه عن صراع السود الدؤوب ضد البيض قد ضمن صفحات هذا الكتاب المؤثر .

ويلعب كل من التشويق والصدام والرقة والرعب دوره فى هـــذا الكتاب غير العـــادى . هنا يســـقط العنف ولون من النضال البائس فى سبيل البقاء ظلهما المروع على حياة الناس البسطاء المعذبين .

انها احدى المواهب الفذة فى الكتابات الأمريكيـــة ، السوداء والبيضاء .. » .

« مجلة تايم الأمريكية »

